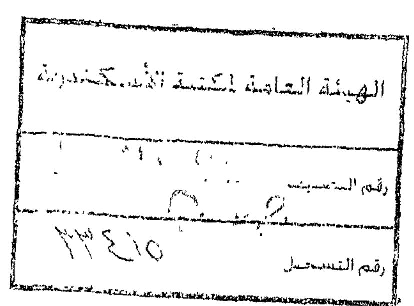


Bibliotheca Alexandrina
0018129

ألف ليلة وليلة
الجزء السادس

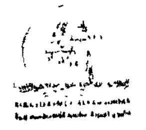

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف
رقم التسجيل

الأحدب والخياط

398.22

كتبه
حسين جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

دار المعارف

رسـوم: الفنـانة النمـساوية سـتيلا يـونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء السادس

صفحة



نِعْمَةُ وجاريتُهُ نُعْم

(١)

ذكروا أنَّه كان بمدينةِ الكوفةِ رجلٌ من وجوهِ أهلها، يُقال له الربيعُ بن حاتمٍ، وكانَ كثيرَ المالِ، مُرفّه الحال؛ رَزَقهُ اللهُ ولدًا فسمّاهُ؛ نِعْمَةَ اللهِ.

وبينما هو ذاتَ يومٍ في سوقِ النَّخَّاسين، يجلسُ على دِكَّةٍ أمامَ دُكَّانٍ — إذْ رأى جارِيَةً تُعْرَضُ لِلبيع، وعلَى يدها طِفلةٌ صغيرةٌ بديعةُ الحسْنِ، بارعةُ الجمالِ، فأشار الربيعُ إلى النخَّاسِ، وقال له:

بكم هذه الجاريةُ وابنتها ؟

فقال : بخمسين ديناراً .

قال الربيعُ حرِّرْ وثيقةَ البيعِ ، وخُذْ ثمنها ، وأعْطِهِ سيِّدها .

ثم دفع الربيعُ للنخاسِ ثمن الجاريةِ ، وأعطاهُ أَجْرَ دِلالتِه ، وتسلَّم الجاريةَ وابنَتَها ، وعادَ إلى بيته .

رأَتْ ابنةُ عَمِّه الجاريةَ ، فقالت له :

يا بنَ العمِّ ، ما هذه الجاريةُ ؟ !

قال لها : رأيتُها في سوقِ النخَّاسين ، فأعجبَتني صغيرتُها التي تحملها ، فاشتريتُها من أَجلِها ، واعلمى يا بنةَ عَمى أنَّ هـذه الطفلةَ الصغيرة إذا كَبرتْ واستدارتْ فلن تجدى بين بنات العرب والعجم من تشبهُهَا جمالًا وحُسناً .

فقالت له ابنةُ عمه : نِعْمَ ما فَعلْتَ .

ثم التفَتَتْ إلى الجارية ، وقالت لها : ما اسْمُكِ ؟

فقالت لها : يا سيدتى اسمى توفيقُ .

قالت : وما اسمُ ابنتِكِ ؟

أجابت : اسمُها سُعْدَى .

فقالت : سَعِدْتِ ، وَسَعِدَ من اشْتَرَاكِ .

ثم أَدارت وجهها إلى ابن عمِّها ، وقالت :

يا بنَ عَمِّى بماذا تسمِّيها ؟

قال : أُسميها الاسمَ الذى تختارينهُ أنتِ .

قالت : نسمِّيها : نُعْمَ .

قال الربيعُ ، نِعْمَ ما فكَّرتِ ، ونِعْمَ ما سمَّيتِ ، ونعمَ مَنْ سُمِّيَتْ .

تربَّتْ الصغيرةُ نُعْمُ مع نعمة بن الربيع فى مهدٍ واحدٍ ، فهُما يُطعمانِ معاً ، ويلْعَبان معاً ، ويناماند معاً ، وينادى نعمةُ الصغيرةَ ، يا أختى ، وتنادى نعمُ الصغيرَ : يا أخى .

فلمَّا بلغا من العمر عشرَ سنين ، وكان كلٌ منهما بالغاً من الحسنِ والجمالِ ما بلغ — قال الربيعُ لابنهِ : يا ولدى ليستْ نُعْم أختَكَ ، وإنما هى جاريتُكَ ، وقد اشتريتُها لك وأنت فى المهدِ ، فلا تنادِها : يا أُختى ، بعد هذا اليوم .

قال نعمةُ لأبيه ، وقد بدت عليه أمارات العجب والألم جميعاً :

يا أبى : إنْ لم تكنْ نعمُ أُختى ، فأنا لا أحب أن تكون جاريتى ، ولا أن تكونَ مملوكةً لى ، وإنما هى رفيقةُ مهدى ، وزميلةُ صِباى ، ومشاركتى فى طعامى وشرابى ، ولَهوى ولعبى ، ثم أسرع إلى أُمه وحدَّثها فى شأن نُعم ، وأبدى لها رَغبتهُ فى أن يجعلها زوجةً له ، ويطلقها من رِبْقَةِ العبودية ، فاستمهلتْهُ أُمُّهُ قليلًا ، حتى تعْرِض عَلَى أبيه هذا الأمر .

ثم لم تلبث الأُم أن حدَّثت الأب حديثَ ابنها ، وكان الأب رجلًا واسع التفكير ، فقال لزوجته :

إنها جاريتُه ، وقد اشتريتها أوّل ما اشتريتُها له وباسمه فله أن يتصرف فيها كما يشاء ، وإذ قد رَغِبَ فى أن يتخذَها زوجَةً له ، فلا حرج عليه.

ولم تلبثْ الأمُ أن أبلغته رأى أبيه فَسُرَّ له ، وذهبَ إليهِ وشكَره ، وقبَّلَ يَدَهُ .

تزوَّجَ نعمة من نُعْمَ ، وعاشا فى أرغَدِ عَيشٍ ، وأهنأ بالٍ مدة من الزّمانِ ، وكانت نعمُ قد برعت فى الفنون والعلومِ ، وقرأَتْ القرآن ، وعرفت أنواع اللعبِ والآلاتِ ، وحَذِقتِ الغناء ، وصار مجلسُها مجلسَ معرفةٍ وتسليةٍ وتفكهةٍ وطَرَب ، فذاعَ صيتُها ، وشاعَ ذكرُها شيوعاً أعلنَ معارفَها ونوادِرها الدّالة عَلَى فرطِ ذكائها ، وحضور بديهتها ، ورجحان عقلها . وتحدَّثَ الناسُ عن باهرِ حسنها ، ونادر جمالها .

وصلت إلى الوالى أخبارُ نُعم ، وَوُصِفَ له جمالُها ودلالُها وعلمُها وفضلُها فقال :

إنّ من تحملُ مثل هـذه الصفاتِ ، لا بد أن يكون مقامُها فى دارِ الخليفةِ ، والله لأحتالَنَّ حتى أنتزعها من سيِّدها انتزاعاً ، وإن كلفنى ذلك أن أرتكب ظُلماً ، ولم يتوانَ فى تدبير حيلة للاستيلاء عليها ، وإرسالِها إلى الخليفة الذى ما كان يكُفُّ عن التقرُّب إليه والتودُّد له ، وطلب الزُلْفَى عندهُ بما يظنُّ أنه يرضيه عنه ، ويقرِّبه منه .

فاستدْعى إحدى قَهْرَماناته ، وكانت عجوزًا داهيةً ، عركَت كثيرًا من أمثالِ هذه الأمورِ ، وخدمت سيِّدها فيها بمهارةٍ وبراعةٍ ، مما

جعلها موضع ثقته ، وأهلًا لسرِّه ، فشرح لهـا الأمرَ ، وعرض عليها ما يُريده منها ، وختم كلامه لها قائلاً :

امضِ الآن إلى دار الربيع واختلى بها ، واعملى حِيَلكِ البارعةِ الماكرة ، حتى تظفرى بموافقتها عَلَى ترك سيِّدها ، فنبعث بها عروساً مجلوَّةً إلى خليفتنا بدمشق .

فقالت العجوزُ وهى تبتسمُ ، وتحاولُ أن تنصِبَ من قامتِها الحدباء التى تنطوى عَلَى خُبثِ الثعالب ، وسُمِّ الحيَّات :

اعتَمد عَلَى ربِّك ، وثق أَنى بفضلِه مُحققةٌ ما تُريد .

وأصبحت العجوزُ مُيمِّمةً إلى دارِ نعمة بن الربيع مؤتزرة بثيابٍ خَشنة من الصوف وحول رقبتها مَسبَحةٌ طويلةٌ ، حبَّاتها ألف حبَّـةٍ ، وبيدها عكازٌ تتوكأُ عليه ، ولسانُها لا يكفُّ عن التسبيح وذكرِ الله خِداعاً ومكرًا حتى وصلت إلى دار نعمة بن الربيع ، فطرقت الباب ، فخرج لها البوابُ ، واستفهمها عما تريدُ فقالت :

أنا فقيرةٌ عابدةٌ ، وأدركتنى صلاة الظهر ، وأُريدأن أُصلِّى فى هذا المكان المبارك .

فقال لها البواب :

يا عجوزُ ، إن هــذه دارُ نعمة بن الربيع ، وليست بجامع ولا مَسجدٍ .



فقالت : أنا أعرف أنها ليست بجامع ولا مسجد ، وأنا قهرمانة من قصرِ أميرِ المؤمنين خرجْتُ للعبادة والسِّياحة .

فقال البواب : أنا لا أستطيع أن أسمح لكِ بالدخول .

وكثُرَ بينهما الأخذ والردُّ ، وارتفع الجدالُ ، فتعلقت به العجوزُ وقالت :

هل يُمنَعُ مثلى من دخولِ دارِ نعمة بن الربيع ، وأنا التى لا يُوصَد فى وجْهى بابُ أميرٍ ولا كبيرٍ .

وزاد بينهما الكلام ، وعلا صوتُها المرتعِشُ المسمومُ ، فسمعَه نعمةُ فخرج إليهما فوجَدهما يكادان يتشابكان ويتضاربان ، فضَحك وأمرها أن تتبعَه .

فتَبِعَتْهُ حتى دَخلَ بهــا إلى نُعْمَ ، فلما رأت العجوز نُعمَ بُهِتَتْ وتَعَجَّبَتْ من فرْط جمالها ، وسلَّمتْ عليها وهى تقول لها :

يا سيدتى : أعِنــدكِ بالله الذى آلف بينك وبين مَولاكِ فى الحسن والجمال مُصَلى؟ فأحضرتها ثم انتصبت العجوزُ عليها ، وعكفت على الصَّلاة والركوع والسجودِ والدعاء إلى أن ولَّى النهار .

فقالت نعمُ للعجوز : يا أمِّى ألا تريحينَ قدمَيك ساعةً ؟

فقالت العجوزُ : يا سيدتى من طلبَ الآخرةَ ، أتعبَ نفسه فى الدنيا ، ومن لم يُتْعِبْ نفسه فى الدنيــا ، لم ينزل منازل الأبرار فى الآخرة .

فأحضرتْ لها نعمُ الطعامَ ، وقالت لها :

كُلي من طعامي ، وادْعِي لي بالمغْفرَةِ والرحمة .

فقالت العجوز : يا ابنتي إنني صائمةٌ ، ولم يحِنْ موعِدُ طعامي بعد . فكلي أنت ، فإنك صبيةٌ يصح لها الأكلُ والشربُ والطربُ والله توّابٌ رحيمٌ .

ثم جلست العجوز إلى نعم تحدثها بمثل ذلك الحديثِ ، وتسوق إليها الحِكَم ، وتعظُها بالمواعظ ، حتى سُرَّتْ نعمُ من حديثها ، واطمأنّتْ إليها .

فلما دخلت إلى زوجها قالت له :

واللهِ يا نعمة إن هذه العجوز امرأةٌ طيبةٌ ، وأرى في وجْهِها آيات العبادة ومظاهر الصلاح فلْنَدْعُها إلى الإقامة معنا بعض الوقت .

فقال لها :

أَخلي لها مكاناً تتعَبَّدُ فيه ، ولا تدَعِي أَحدًا يدخلُ عليها ، فلعلّ الله سبحانه وتعالى ينفعُنا ببركتها .

وقضت العجوز ليلتها تصلي وتتعبد ، فلما كان الصباحُ أتَتْ إلى نعمة ونعم وحيّتهما بتحية الصباح ، ثم قالت لهما :

استودعتكما الله .

فقالتْ لها نعم : إلى أَينَ تمضينَ يا أُمّي وقد أَخلينا لك مكاناً تعتكفين فيه للصلاة والعبادة ؟!

فقالت : أدام اللهُ عِزَّكما ومعروفَكما ، فإنَّ من عادتى أَن أَطوف على المساجد والأماكنِ الطاهرة ، وسوفَ أَعودُ إليكما إن شاء اللهُ قريباً ، فوصِّيا البواب أن يكرِمَنى ، وألَّا يحولَ بينى وبين الدخول إليكما حينما أَشاء ، فوعداها ذلك ، وطلبا إليها أن تدعو لهما فى كلِّ مكانٍ طاهرٍ تعبدُ الله فيه . ثم سلَّمتْ عليهما . وانصرفت إلى سيدها الوالى ، فلما رآها بادرها بالسؤال :

ما وراءكِ ؟

فقالت : لقد احتلتُ حتى دخلتُ منزِلها ونِلْتُ ثِقتَها ، وقد رأَيتها لم يُولَدْ على وجه الأرض أجملُ منها .

قال : إن استطعت أن تَصِلى إلى ما أريدُ ، فسوف يَصِلُ إليكِ مِنِّى خيرٌ جزيلٌ .

قالت : إنى أُريد منك أن تمهلنى شهرًا .

أَجاب : لقد أمْهلْتُك شهرًا .

وما زالت العجوزُ تتردَّدُ على دارِ نعم ونعمة ، وهما يُرحِّبانِ بها ، ويبالغان فى إكرامِها حتى اختلت العجوز يوماً بنعم ، وقالت لها :

يا ابنتى : إنى عند ما أكونُ فى الأماكن الطاهرة أدعو اللهَ لكِ وأتمنَّى أن تكونى معى فتشاهدى الأماكن الشَّريفة ، وتزورى أولياء اللهِ الصالحين ، وتطوفى معى على الفقراء والبائسين .

فقالت نُعم : واللهِ لَوَدِدْتُ أن أكونَ معكِ ، فقد ملأْت قلبى إيمانًا

بحديثك ، وشوّقتِنِي إلى رؤية المساجد والصَّلاةِ فيها .

فقالت العجوزُ : قُومِى بِنَا فى هذه الساعةِ ، فإنِّى قاصدةٌ الآن إلى مسجدٍ مُبَارك .

إننى لا أستطيعُ أن أخرج من غير أن يأذن لى سَيِّدى .

قالت العجوزُ : اسـألى حماتك فى ذلك واستأذِنيها أن تسمح لك بالخروج معى ، فإنى لا أشكُّ فى أنها ستقبَلُ راضيةً أَن تخرجى معى على أن أعود بك فى الحفظ والصّوْن .

فذهبت نُعم إلى حماتها ، وسألَتْها أن تأذنَ لها بالخروجِ مع العجوزِ إلى المسجدِ الطاهر لتُصَلِّى معها فيه ، وتدعو الله لها ولأسرتِها بالخير . وكانت العجوز فى صحبتها .

فقالت أم نعمة :

أخشى أن يغضَبَ زوجُك إذا أنت خرجت من المنزل من غير أن يأذن لكِ ، وأنا أعرفُ منزلة العجوز عنده واحترامَه إيَّاها ، وثقته بتقواها وإيمانه بصلاحها ، ولكنَّ هذا شئ ، وخروجك من المنزل فى غيبته وبدون إذنه شئ آخر ، فقالت العجوزُ :

إننى لن أغيب بها ، ولن أُبطِئَ ، بل سأَعودُ بها سريعًا قبلَ أن يعودَ زوجُها وسيدُها ، فإذا شئت ألَّا تُعْلِميهِ أنهـا خرجت معى فلا عليك ، وإذا شئت أن تخبريهِ فأَنا أُؤَكدُ لك أَنَّ هذا لن يُغْضِبهُ ، وأنت تعلمين منزلتى عنده .

فسكتت أم نعمة ، وخرجت بالصمت عَنْ لا ونَعَمْ ، وكان ظاهرًا في عَيْنى نُعم أنها تُرَحِّبُ بالخروج مع العجوز ، فاتخذتْ من صمت سيِّدتِها دليلًا على الرِّضا ؛ وأسرعت إلى ملابسها ولبِسَتها ، وخرجت مع العجوز .

وهكذا أخرجت العجوز الماكرة الداهيةُ الفتاة من دارِ سَيِّدها بالحيلة ، وسارت بها إلى قصر الوالى الظالم العاتى ؛ فأجلسَتها فى إحدى مقاصيرِه ، وذهبت إلى الوالى وأعلمته ما فعلت

فجاء الوالى إلى المقصورة مُسْرِعاً ، ونظر إلى نُعم مِنْ بعيدٍ فرَاعَهُ جَمَالُها ، وبهاؤها ورُواؤها ؛ وهَالَهُ ذلك القَدُّ المشوقُ ، والقوامُ المعتدلُ والوجْهُ الأبيضُ ، والخدُّ الورَّدُ ، والعينُ الكحلاء ، وفوقَ ذلك كلِّه الروحُ الخفيفُ ، والجاذبيةُ العجيبةُ .

فاستدعَى حاجبَهُ ، وأسرَّ إليهِ أن يُعِدَّ فى الحالِ هَجِيناً لجاريةٍ غالية يَوَدُّ إرسالها إلى الخليفةِ بِدِمَشْق ، ويأتيهِ بردِّهِ .

ثم دخل المقصورة التى بها نُعم ، فلما رأته سترتْ وَجْهَهاَ بِنقابِهاَ ، وهى تتعجَّبُ مِنْ تَرْكِ العجوز لها فى هذا المكان ، وتتساءلُ عن سِرِّ اختفائِها ، وبدأت الوساوِسُ والشُّكوكُ تُساوِرُها ، وأخذت تنظرُ هُنا وهناك لعلَّها تجدُ العجوزَ فلم ترها .

ولمْ تمض إلَّا بُرْهَةٌ حتى أتى الحاجبُ ، وأعلن أنه على أُهْبَةٍ

الاسْتِمْدَادِ ، فأَمرَه أن يذهَبَ بها إلى الخليفة ، فأخذها الرَّجلُ ، وأركبها الهجين ، وهى تبكى وتقاومُ دونَ أن تجد رحمةً أو غوثاً .

وسافر الهجينُ بنُعم مصحوباً بالحرس ، يقطع الْفيافِي ، ويجتازُ القفار ، يَصْعَدُ الأنجاد ، ويهبط الوهادَ ، يعتلى ربوةً ، ويعبُرُ سهلًا ، حتى دخل دمشق الفيحاء وهى مقرُّ الخليفةِ فى ذلك الحين .

فلما مثُل الحاجبُ بين يدَى الخليفة أعطاهُ الكتاب الذى بعث به إليه الوالى وأخبره بحضور الجارية . فأمر الخليفة بإفرادِ مقصورةٍ لها ، ودخل إلى نسائه وجواريه وقال لهن :

لقد اشترى لى والى الكوفة جاريةً من بنات الملوك بعشرة آلاف دينارٍ ، وأرسلها إلىَّ ومعها كتابٌ يعرفنى فيه بذلك ، فأكرمْنَها واعْتنيْنَ بها .

فقلنَ : سمعاً وطاعة ، زادكَ اللهُ من فضله .

وتوجَّهت أخت الخليفة إلى مقصورة نُعم ، لترَى جارية أخيها الجديدة وتنظرُ ما يناسبها من لباسٍ وحُلىٍّ .

فلما رأتها بهرها جمالُها وشبابُها رغم ما قاسَتْهُ نُعم من الشِّدة والحزن والمشاقِّ ، فقالت لها :

لا يَشْقَى مَنْ حلَّ فى هذا المنزل .

فقالت نُعم : يا سيدتى قصرُ من هذا ؟ وأىُّ مدينةٍ هذه ؟

فأجابت مُندهشة لسؤال نُعم : هذه مدينة دمشق ! وهذا قصرُ

أخى أمير المؤمنينَ ! أما علمت هذا من قبلُ ؟ !

أجابت نُعم : يا سيدتى لا عِلم لى بهذا .

والذى باعكَ وقبضَ ثمنكِ ؛ أما أعْلمكِ أن الخليفةَ قد اشتراكِ ؟ !

فلما سمعتْ نُعم هذا الكلامَ تبلَّجَتْ الحقيقةُ المرَّةُ أمامَ عينيها ، وعرفت الحيلةَ التى انطلتْ عليها ، وانحدرت الدموعُ على خدَّيها ؛ ولم تأملْ فى رجاءٍ يأتيها إذا ما شرحَتْ لها حالها ، ففضَّلتْ السكوت على الكلام ، وأطرقت إلى الأرض ، فلما رأتها أختُ الخليفةِ على هذه الحال ظنَّتْ أنها مستوحشةٌ وتركتها ، ومضت إلى وقت آخر .

وفى اليوم التالى أحضرت لها الثيابَ المزركشةَ والقلائدَ والجواهرَ وألبستها وجَمَّلتْها ونُعم بين يديها صامتةٌ ساهمةٌ مُطرقةٌ ، وبين كل لحظةٍ ولحظةٍ تتأوَّهُ آهةً تحسُّ سيدتُها أن نِياطَ قلبها قد تمزَّقَ ، ثم تزفر زَفرةً يكاد حرُّها يشوى ما يلمَسُه ، وتحاولُ أن تكفكف من عينيها دمعاً غزيرًا فلا تَقدرُ .

يحدثُ هذا كلُّه ، وسيدتها لم تقدِّرْ إلَّا أنها مستوحشةٌ ، واستمرت فى تزيينها وجَلْوِها حتى فرغتْ من ذلك ؛ ثم دعت الخليفةَ للدخولِ إليها ، وهى تقولُ له :

أنظر إلى جاريتكَ التى أَفرغها الله فى قالبٍ من الجمالِ والحسنِ ، فقال الخليفة لنُعم :

اكشفى القناعَ عن وجهكِ يا فتاتى ، وكانت قد سترَتْهُ عند دخوله ،

فلم تكشف قِناعَها ، وظلّتْ مُطْرِقةً . فقال الخليفةُ لأُختِه . دعِيها تستأنسُ بك ثم تركها وانصرف .

وكان لما عانته نُعم من غم وحُزنٍ ومَشقّةٍ أثرٌ سَيِّئٌ على نفسها وصحتها فما أتى مساء هــذا اليوم حتى كانت فريسةً للمرض ، تمضُّها وطْأةُ الحمَّى ونُقلَ خبرُ مرضها إلى الخليفةِ ، فاستدعى لها أمهرَ الأطبَّاء ، فبذلوا جهدهم معها ، حتى أبعدوا عنها شبحَ الموت ، ولـكنهم أخفقوا فى شفائها ، فقد ظلّت مع اهتمامهم بأمرها ، وعنايتهم بها مريضةً عليلةً .

(٢)

أما ما كان من أمر نعمة ، فإنه لـما عادَ إلى منزله ، ولم تستقبلْه نُعم كعادتها — نادى : يا نُعم .

فلمّا لم تلبِّ النداء ، ظنّ أنها فى بعضِ أمرها ؛ ودخلَ إلى حجرته ، فلما استبطأها كرّر النداء ، فلم يجبه أحدٌ ، فتعجّب لذلك ، وخرجَ ينادى يا نُعم ، ولما لم تجبْهُ نادى الجوارى ليستفهم عنها ؛ ولـكنَّ جميعَ الجوارى كنَّ قد اختبأنَ واختفيْنَ حتى لا تقعَ عينهُ عليهنَّ ، ولم تستطِعْ واحدةٌ منهنّ أن تجابهه بخروج سيدتهن ، وغيابها ، فزادت دهشةُ نعمة ، واشتد عجبهُ من هذا الأمر المُبهم . فذهبَ إلى حُجرة أمِّه ، فوجدها جالسةً حزينة ، ويدُها على خدِّها ، فقال لها : يا أُمِّى ؟ أين نُعمُ ؟ وماذا دَهى أهلَ المنزل ؟ !

قالت : يا ولدى ؛ نُعم مع مَنْ هِىَ أخوفُ منى عليها ؛ وهى العجوزُ الصـالحةُ . فقد خرجت معها لتحسن إلى الفقراء ، وتعود المرضى ،

وتُصليَ في المسجد الطاهر ، وتدعوَ لك ولها ، وقد تدعو لى أنا كذلك .

فقال : ما كان لها بذلك عادَةٌ ! وفى أَيِّ وقتٍ خرجتْ ! ؟

قالت : خرجت بُكرةَ النهار .

قال : وكيف أذِنْتِ لها ! ؟

فأجابت : يا ولدى ؛ هى التى أشارتْ علىّ بذلك ، فقد أغرتْها العجوزُ ، واستمالتها ، فأبَيْتُ عليها ، واستشارتنى فلم أُشر ، وتردّدتُ فى الأمر ، وأنكرتُ عليها أن تخرج ؛ ولكن إلحاحَ العجوز ، ووُثوقك فيها ، واطمئنانُك إليها — جعلها تَذهب معها ، نسألُ اللهَ لها السلامة .

ولما مرّ الوقتُ على نعمة وهو ينتظرها ، ولم تعد — عرف أن فى الأمر حيلة ، وأن هناك تدبيرًا محكمًا لاغتصاب نُعم ، وأن شراكاً نُصبت لاختطافها ؛ ولم يلبَث أن نهض وذهبَ من فوره إلى صاحب الشرطةِ ، وقصّ عليه القصةَ ؛ فقال له صاحبُ الشرطة :

صف لى العجوز التى خرجتْ معها زوجتكَ فوصفها له . فعرفَ صاحبُ الشرطةِ أنها عجوزُ الوالى .

فقال لنعمة : دُلَّنى على مكانها ، وأنا أخلِّصُ لك زوجتك منها .

فقال نعمة : لو كنتُ أعرفُ أنا مكانها لما لجأتُ إليك .

فقال صاحبُ الشرطة وهو يحاولُ إظهارَ الأسف : وما يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ سبحانه وتعالى .

فاغتاظ نعمة منه ، لمحاولته التخلص من أداء واجب هو فى الواقع

من عمله؛ وقال له محتدًّا: وأنا لا أعرف زوجتى إلا منك، ولا يدلُّنى على مكانها إلا أنت؛ وبينى وبينك الوالى، وهو رجلٌ قاسٍ فى الحق، صارمٌ عادل .

فتبسَّم صاحبُ الشرطة غيرَ مبالٍ بغضبه وحدَّته، ولا مكترثٍ بتهديده ووعيده، لأنه فهم السرَّ، ثم قال :

اذهبْ إلى من شئتَ، واشكُ إلى من أردْتَ .

ذهب نعمة من فوره إلى قصر الوالى، وبعث مع الحاجب شكايته، ليرفعها إليه .

ولما كان والدُ نعمة من وجهاء الكوفة وسراتها — لم يتوان الوالى فى استدعائه إليه وسؤاله عن قضيته .

دخلَ نعمة على الوالى فاستقبله باسمًا، وردّ عليه التحيةَ ردًّا جميلاً، ثم سأله : ما شأنُك .

فقصّ عليه قصة زوجته نُعمَ والعجوز، فأمر الوالى باستدعاء صاحب الشرطةِ؛ فلما حضرَ قال له، وهو يعرفُ أنه يعرفُ العجوز : أُريد أن تبحث عن زوجةِ نعمة بن الربيع، وأن تبذُل ما تستطيعُه فى هذه المسألة التى لا ينبغى السكوت عليها منّا .

قال صاحب الشرطة :

لا يعلم الغيبَ إلا الله .

قال الوالى : لابد أن تبعث رجالك على ظهور الخيل تبحث فى

الطرقات ، وتُنقِّب في البلدان ، وأن تبثّ عيونك هنا وهناك ، يتسقّطون الأخبار ، ومن الضرورى أن تعرف مصيرَ هذه الزوجة .

ثم قال لنعمة : وإن لم ترجع إليك زوجتك فلك من دارى عشرُ جوارٍ ، ومن دار صاحب الشرطة مثلهنّ والتفت إلى صاحبِ الشرطةِ ، وقال له :

اخرج من فورك في طلب الزّوجة .

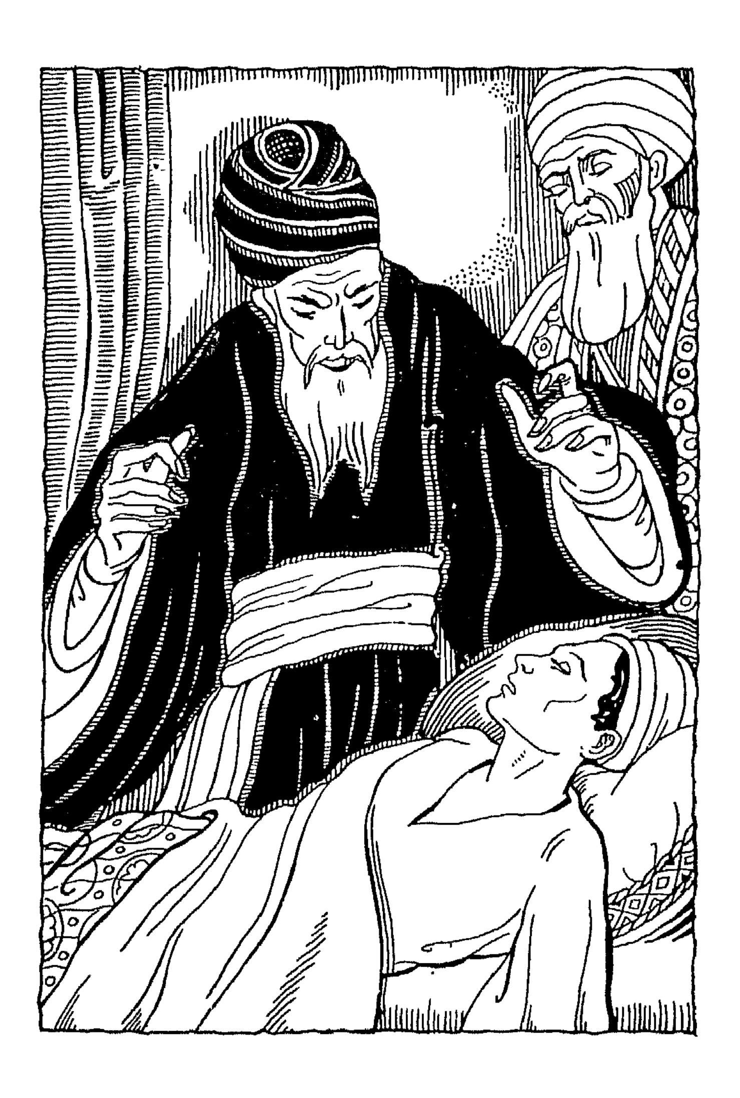
فقال : سمعاً وطاعة .

وانصرف .

وعاد نعمةُ إلى داره حزيناً مكتئباً ، يائساً ، قانطاً ؛ فأتاه والدُه ، وقال له :

يا ولدى لا تيأسْ ولا تقنَط ، فمن ساعة إلى ساعة يأتى الله بالفرج .

وتذاءبت الهمومُ على نعمة ، فساءت حالهُ ، وأظلمت الدُّنيا في عينيه فلم يهنأ له طعامٌ ولا شرابٌ ، ولم يطبْ له رُقاد ، ونفرَ من الناس نفورًا شديدًا ، فلزم غرفته ، وآثر الوحدةَ والانفراد ؛ وظلّ على تلك الحال زمنًا طويلًا ، لا يعرفُ أحداً ، ولا يخاطبُ أحداً ، ولا يأنسُ إلى أحد ؛ وركبته الأمراض ، وعادَهُ أمهرُ الأطباء ووصفوا له أنجعَ الدواء ، فلم يبْرأ من مرضه ، ولم تخفّ عنه علتهُ ، وأخيراً وصل إلى سمع والده البائسِ الحزينِ نبأ وجودِ طبيبٍ أعجمىّ ، عرف بإتقان الطبّ ، والتنجيم ، وضرْب الرمل ، فبعث في طلبه .



فلما حضر الطبيبُ المنجِّم ، ودخل عند نعمةَ ، تفرَّس فى وجهه برهةً ، ثمَّ جسَّ نبضه ، وَتحسَّسَ مفاصِله . وما ابثَ أن نظر إلى والد المحزونِ وهو يضحك ، ويقول :

ليس بولدكَ غيرُ مرضٍ فى قلبه ، مرض فى عواطفه ووجدانه ، مرض لا تنفع فيه العقاقير ، ولا تُبرئه منه الأدويةُ .

فقال الوالد : صدقت يا حكيم ، فانظرْ فى شأنِ ولدِى فلعلكَ تستطيعُ أن تشفى رُوحه .

فقال الأعجمىّ : إنه مريضٌ بسبب فراقِ زوجتِه ، وهذه الزوجةُ فى البَصرة ، أو فى دمَشق أو فى غيرهما من المدن الأخرى ، وما دواء ولدِكَ غيرُ رؤيتها .

فقال الربيع : إن جمعْتَ بينهما فلك عندى ما يسرُّك .

فقال الأعجمىّ : سيكونُ ذلك أمرًا سهلًا إن شاء الله ، فهو علىَّ هيِّن .

ثم التفتَ إلى نعمة وقال له : لا بأسَ عليك ، اشدُد حولك وقوّ قلبك ، وطبْ نفسًا ، وقرَّ عينًا ، فإننا بإذن الله سنشُدُّ رحالنا إلى بعض البلاد فى مثل هـذا اليوم من الأسبوع المقبل ، وان نعودَ إلّا بزوجتك ، وأودُّ أن تنتعش ، وتأكل ، لتستردَّ عافيتك ، وتقوى جسمَك على تحمُّل مشقَّات السفر .

فلما سمع نعمة ذكر زوجته ، واحتمالَ لقائها — رفع رأسه ثم تحامل

على نفسه ، حتى استوى جالساً ، وأخذ يتمتم بكلام كثير ، فهم منه أنه يسأل الله أن يحقق رغبته ، ويستجيب للطبيب أمنيته ، وتغيَّرت حالتُه المعنوية ، وبدأ ينتعش بعض الانتعاش ، وأخذت الحياة تدبُّ فى أوصاله ، فوالاه والده بالطعام والشراب ، مدة الأسبوع الذى حدَّده الأعجمى ليبدأ بعده السفرَ بصُحبتِه ، فاستردَّ عافيته وقوَّته .

(٣)

أمّا الأعجمى فقد قضى هذا الأسبوعَ فى الاستعدادِ للسفر والتأهب له وإعداد ما يحتاج إليه من آلات وغيرها ، ووالد نعمة لا يضنُّ عليه بمال حتى بلغَ ما أمدَّه به عشرةُ آلاف دينار أو يزيد .

وفى اليوم الموعود جاء الطبيبُ الأعجمىُّ ، وأُعِدَّ له الركب فودّع نعمةُ والديه ، وهما يدعوان له بالدعوات الصالحة ويتمنّيان له تحقيق أمله ، وبلوغَ مراده . ثم صحِبَ الأعجمى وشدَّ الرحال ، وقصدا أوَّلًا إلى حلب فأقاما فيها أسابيع يتسقطونِ الأخبار ، ويتجسَّسُون ، ويتحسَّسون ، ويغشوْنَ أسواق الرقيق ؛ ولكنهما لم يقفا على خبر للزَّوْجَةِ نُعم ، فاستأنفا السفر حتى أتيا مدينة دمشق .

واتخذ الأعجمىُّ دكانًا فى مكان ظاهر بسوقِ المدينة ، ولم يأل جهداً فى إعداده ، وترتيبه ، وتنسيقه بالستائر المزركشة ، والتحف النادرة ، والقاشانى الثمين ، الذى نُمِّقَ ببراعة تلفتُ الأنظار ، فوق أرفُفٍ مُوِّهتْ بماء الذهب ، وصفّ على موائد مستطيلة صُنوفًا كثيرةً من زجاجات الأدوية

وقنّينات الأدهنة ، بجانبها أوانٍ ، وأقداح من البلّور اللامع البرّاق ، الذى يأخذ العين ، ويخلبُ اللبّ ، ثم اتخذ له مجلساً فى صدر الدكان ، ووضع أمامه التُّحف والاصطرلاب ، وارتدى ملابس أهل الطب والحكمة ، فكان الناظرُ إلى هذا الدكان يرى صيدليّة من أجمل الصيدليّات ، وقد حوتْ أدويةً يخيلُ للناظر إليها من قريب أن نعمة الشفاء من كلّ داءٍ تتطلع إليه من بين الزجاجات ، ومن خلال الحُقاق ، ومن ثنايا العُلب ، ومن بين الأرفف .

أما نعمةُ فقد أوقفهُ بجانبه ، وألبسهُ ملابس ثمينة من الحرير المزركش بخيوط الذهب . وقال له :

يا نعمة ؛ أنتَ من اليومِ ولَدى ، فلا تَدْعُنى إلّا بأبيك ؛ وأنا لا أدعوك إلّا بوَلدِى .

فقال نعمة : سمعاً وطاعة .

واجتمع أهل دمشق يتفرّجون على دكان هذا الطبيب الجديد ، ويشاهدُون ما به من الأشياء الجميلة . ولكن لا تلبثُ عيونهم أن تتحوّل إلى نعمة يلتثون منه أنظارهم لفرط جاذبيته وجماله والأعجمىُّ يخاطبُ نعمة بالفارسية ، ونعمة يكلمه كذلك بها ؛ فقد كان يعرفها ، كمعظم أولاد الأعيان والوجهاء .

وشاع صيت الأعجمى ، وذاعتْ شهرته فى التطبيب ، والتنجيم ، ومعرفة العلل والخفايا ، وقصده الناسُ من كلِّ حَدَب وصوْب : من

دمشق وغيرها من البلاد القريبة والبعيدة ، يعرضون عليه أنفسهم ، ويشكون حالهم ، ويشرحون ما بهم من أمراض وعلل ، ويتوسّلون إليه أن يفحص ما بهم من أدواء فيهشّ فى وجوههم ويبشّ لهم ، ويجاملهم ، ويلاطفهم ، ويتقدّم إليهم فى رفق ، وعطف وحنان ويستمع إليهم ، ويُطيلُ باله عليهم ، ويجسُّ النبض ، ويبحث عن موضع العلة ؛ حتى يهتدى إليه ، فيصف الدواء الناجعَ ، السريع الأثر فى إزالة المرض ، والقضاء عليه .

وكان ذلك كلّه سبباً فى إقبال الناس عليه ، وتودُّدهم إليه ، يطلبون الحياة عنده ، وهو لا يفتأ يعاملهم أجمل معاملة ؛ ويلاطفهم أرقَّ ملاطفة ؛ لا يفرّقُ بين كبير وصغير ، وغنيّ وفقير ، فالكل أمامه سواء ، وقد يكون أكثر عطفاً على الفقير ، وأشدَّ رحمة به ، فيجامله بألّا يتقاضى أجرًا ، وقد يَصرف له الدواء ، من غير أن يتقاضى له ثمنًا ، فينصرفُ عنه وهو يدعو له بالخير والبركة ، ودوام الصحةِ والعافية .

لذلك كلّه أحبَّه الناس حبًّا شديداً ، فهو الذى يتفضلُ عليهم ، ويمنحهم من علمه وفنّه وصيدليته صحة وعافية ؛ وصارُوا يتردّدون عليه ، حتى الأصحاء منهم لمجرد التسليم والتحية والزيارة

وبينما كان الطبيب جالساً ذات يوم على عادته فى صدر الدكان وبجانبه نعمة ، إذ أقبلت عليه عجوزٌ تركبُ حمارًا ، وأشارت إلى الطبيب فأسرع إليها ، وأخذ بيدها ، وترفّقَ بها ، حتى أنزلها من فوق الحمار ،

وتوكّأت على كتفه ، حتى أجلسها على دكة بجانبه ، وابتسمَ لها ، ورحَّبَ بها ؛ فقالت فى صوتٍ متهدِّج :

أأنت الطبيبُ الأعجميُّ الذى وفد علينا من العراق ؟

قال : نعمْ يا سيدتى ، أنا الطبيب الأعجميُّ الذى وفد عليكم من العراق ، فأكرمتمْ وفادته فى هذا البلد الطيِّب .

قالت :

اعلم أنّ لى بنتاً مريضة ، وأودُّ أن تعرفَ لى علتها ، وتداويها ، ثم أخرجت له قارورةً بها بول المريضة ، لعله إن فحص عنه عرف علتها ودواءها .

فأخذها الأعجميُّ ، ونظر فيها ، ثم قال :

عرِّفينى يا سيدتى اسم ابنتك ، حتى أحسب نجمها ، وأعرف ما تتحمله من دواء ، فإن الجرعات التى نصفها يجب أن تلائمَ طبع المريض ومزاجَه ، ومعرفةُ طبع المريض ومزاجه متوقفةٌ على مَدى اتِّصاله بالنجوم والأبراج .

فقالت العجوز : يا أخا الفُرس ؛ اسمُها نُعم .

فأخذ يحسب ، ويكتب ، ويخطّ ، ثم قال :

عرِّفينى أيضاً سنّها ، والأرضَ التى وُلدتْ وتربّتْ فيها ، لاختلاف الهواء .

فعرّفته سنّها ، وأن ولادَتَها ومرباها أرْض الكوفة بالعراق .

فقال : وكم شهراً قضت فى هذه الديار .

قالت شهوراً قليلة .

قال : سُنعدُّ لك ما يوافقها من دواء .

وكان نعمةُ فى ذلك الوقت يقف بجوار الطبيب ، وقلبهُ يخفق خفقاناً عنيفاً ، حتى لتكاد تسمعُ خفقانه ، فقد سمع اسم نُعم ، وأدرك ، بل أيقن أنهـا هى المريضة ، ونظرَ الطبيبُ إليه نظرةً فهم مغزاها ، وقال له :

أعدّ لها من العقاقيرِ كذا وكذا .

وشرعَ نعمةُ فى إعداد العقاقير ، والعجوزُ تنظر إليه ، وهى تتعجب من جماله الذى يشبه جمال نعم المريضة . ثم قالت للحكيم الأعجمىّ :

يا أخا الفُرس ؛ أهذا مملوكك أم ولدُك ؟ !

فقال : يا سيدتى ، إنه ولدِى .

وكان نعمةُ قد فرغ من إعداد الدّواء ، ودسّ فى داخل العلبةِ ورقةً كتب عليها بخط أهل الكوفةِ كلاماً إذا قرأتهُ نُعم عرفتهُ ، وعرفتْ أن سيدها نعمة يعمل عند الطبيبِ الأعجمىّ ، وأنه ما زال قلبه على عهده يذكرها ولا ينساها ، وزادَ أن كتب على غطاء العلبة بالكوفىّ أيضاً : أنا نعمةُ بن الربيع الكوفىّ . ثم أعطى العجوزَ العُلبةَ وتركتْ له عشرةَ دنانير ، وانصرفتْ .

عادت العجوز إلى قصر الخليفة ، وذهبت من فورها إلى مقصورة نُعم ، فقد كانت إحدى المكافات بها ، وقالت لها :

يا ابنتى ؛ لقد قصدت اليوم إلى طبيب أعْجِمى ، ما رأيت أحداً أبصر ولا أعرف بالأمراض منه . فلما ذكرت له اسمك ، ونظر إلى القارورة عرف مرضك ، ووصفَ دواءك ؛ وأمر ولَدَه فأعد لك هذا الدواء .

ثم ناولتها العُلبة ، وهى لا تزالُ تتكلمُ ، وتصف لنُعم جمال نعمة قائلة :

وما رأيت يا ابنتى فى دمشق ولا فى غيرها أجمل ولا أظرف ولا أرقّ شمائل من هذا الشاب الذى يعمل فى دكان الطبيب .

وكانت نُعم تسمع لكلام العجوز ، غير مُلقية بالها إليها ، وبيدها علبة الدواء التى أعطتها إيَّاها ، فوقع نظرها عفواً على اسم زوْجها ، واسم أبيه ؛ فارتجفت وخفق قلبها ، وعلمت أن زوجها قد حضر فى أثرها يبحث عنها ؛ فالتفتت إلى العجوز وهى لا تستطيع إخفاء لهفتها ، وقالت :

صفى لى هذا الشاب .

قالت : اسمهُ نعمةُ ، وعلى حاجبه الأيمن أثرٌ ، وهو جميلٌ وجذَّاب ، ويرتدى ملابس فاخرة .

فقالت نُعم : أَعطينى من الدواء على بركة الله .

ثم شربت الدواء وهى تبتسم وتقول : إنه دواءٌ مبارك بإذن الله .

ثم أخذت العلبة ، وعادت تتأملها ، وتقرأُ اسم حبيبها وزوجها نعمة ، وكلما أَنعمت النظر فيه سرى فى جسمها نسيم الشفاء ، ودبَّ دبيب الأمل

والرجاء ، وسَرَى فى أَوصالها الانتعاش والسرور ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة « حلوة » جميلة ، وهوَّم طائرُ السعادة أمام عينيها .

ثم فتحت العلبة تُقلِّب ما بها ، وتامس الدواء الذى أُعدّه سيدُها وزوجها ، فعثرت بالورقةِ التى بها ، فقرأتْها ، فزادت نفسها اطمئنانًا ، وأحسَّت النسيم روحًا وريحانًا ، وتحققت قرب الفرج ولاحظت العجوز ابتهاجها ونور وجهها ، فقالت :

يا ابنتى ؛ إنك اليوم أحسن حالًا ، فهو حقًّا يوم مبارك .

فقالت نُعم :

نعم ؛ إننى أشعر الآن بتحسُّن كبير ، وأحسُّ أَنى جائعة وأريد شيئًا آكله أو أَشربه .

فنهضت العجوز مسرعةً إلى الجوارى ، وقالت لهن :

أَسرعن ، وقدِّمن الأطعمة الفاخرة لسيدتكُنَّ نُعم ، فقد اشتهت نَفْسُها الطعام ، فأسرعن يُلبِّين الأمر .

وبينما نُعم جالسةٌ تأكلُ ، وأمامها مائدة حافلة بأشهى المأكولات وأنخر الأطعمة ؛ إذ دخل عليها الخليفة لينظر حالها ، فلما رآها تأكل بشهية ، ورأى بريق الصحة يلمع فى عينيها سُرَّ كثيراً ، فقالت له العجوز القهرمانية :

يا أمير المؤمنين ؛ اهنأ بعافية جاريتك نُعم ، فقد وصل إلى المدينة طبيب ما رأيت أعرف منه بالأمراض وعلاجها ، فأتيت لها منه بدواء ؛

ما كادت تأخذ منه مرةً واحدة ؛ حتى شعرت بدبيب العافيـة ، وبوادر الصحة ، فقال الخليفة :

إنه لشيء مدهش حقًّا فخذى ألف دينار وتوجَّهى بها إلى هـــذا الطبيب ، وانقُديه إياها جزاء له على ما فعل من معجزة .

فقالت العجوز : سمعاً وطاعة .

وقصدت العجوز إلى دكان الأعجمى ومعها النقود وورقة كتبتها نُعم وطلبت منها أن تُعطِىَ الطبيب إياها ، فهى تشكره فيها على حسن صنيعه فلما وصلت وأعلمته أن الجارية التى كانت مريضة جارية الخليفة ، وأن هذه النقود هبة من الخليفة له ، وأخذ الطبيب النقود والورقة ، فعرف أن الورقة من نُعم ، فأعطاها لنعمة : فما إن أخذها هـذا وفتحها ووقعت عيناه على خط نُعم ، وعلى الكلمات التى خطتها ، تُبيِّنُ بها حالها ومآلها ، حتى انتفض انتفاضة عجيبة ؛ ثم سقط مغشياً عليه ، فأسرع الطبيب إليه وعمل على إسعافه وإفاقته .

وكانت العجوز قد تملكتها الدهشة والحَيْرَة لما حلَّ بالفتى ، وأخذت تنظر إليه وهى حزينة عليه راثية له آسفة لحاله ، فقد شعرت نحوه بمحبة وحنان ، ونزل من قلبها منزلة الولد فلما أفاق قالت له :

ما الذى يُبكيك يا ولدى ؟ ! لا أبكى الله لك عيناً .

فقال الأعجمى :

يا سيدتى ، كيف لا يبكى وهذه الجارية المريضة زوجته ، وهو

زوجها نعمة بن الربيع . وما عافيتها إلا مرهونة برؤيته ، وليس بها علّة إلا بُعدها عنه مع محبتها له . فخذى أنت يا سيدتى هذه الدنانير التى أحضرتها لى ولك عندى أكثر منها ، إذا أنت نظرت لنا بعين الرحمة وعملتِ على مُساعدتنا فى الجمع بين الزوجين المتحابين المتوادين ، اللذين فرّق بينهما مكر الماكرين وخِداع الخادعين . فنظرت العجوز بعطف إلى نعمة وقالت له :

هل أنت زوجها ؟

قال . نعم

قالت : صدَقت ، فهى لا تفترُ عن ذكرك فى صحوها ومنامها ، فإذا نطقت فأنت أول مَنطقها ، وإذا سكتت فأنت فى قلبها ، وإذا نامت فأنت لذيذُ أحلامها فقصّ عليها نعمة قصتَه وقصتها ، وعرّفها ما قاساه من مرضٍ ، ولاقاه من تعبٍ ومشقة .

فقالت : يا فتى ، إن اجتماعك بها سيكون إن شاء الله على يدى .

وركبت لساعتها ، وعادت إلى قصر الخليفة ، ودخلت على نُعم ، ونظرت إلى وجهها وهى تبشُّ وتضحك .

وقالت لها :

يَحقّ لك يا ابنتى أن تبكى وتمرضى من أجل فراق سيدك وزوجك نعمة بن الربيع الكوفى .

قالت نُعم : لقد انكشف لك الغطاء وعرفت السبب .

فقالت العجوز : طِيبي نفساً ، وانشرحي صدراً ، واهنئي عيشاً ، فوالله لأجْمَعنَّ بينكما ولو كان فى ذلك ذهاب روحي .

ثم عادت من فورها إلى نعمة ، وأعلمته ما كان بينها وبين نُعم ، وقالت له : إن زوجتك عندها من الشوق لك أكثر مما عندك لها . فإن كان لك جنانٌ ثابت وقلبٌ قوى — فأنا أخاطرُ بنفسى ، وأُدَبِّرُ حيلة ، وأعمل على لقائكما . وذلك بأن أُلبسَك ثياب الجوارى وأدخلك قصر الخليفة على أنك جارية ، فإن نُعم لا أستطيع أن أخرج بها الآن .

فوافقها نعمةُ على رأيها . فودَّعته وانصرفتْ عَلَى أن تأتيه لتنفيذ ذلك فى الغد .

(٤)

وفى اليوم التالى حضرَت العجوزُ إلى دُكان الطبيب وفاءً بالوعد ، ومعها صُرَّة من ملابس النساء ، وكلّ ما تحتاجُ له المرأةُ فى التزيّن والتجمّل ، وقالت لنعمة : ادخلْ بنا إلى مكانٍ مستترٍ خَفِيّ .

فدخل معها إلى خلوةٍ فى نهاية الدكان ، فألبستْهُ ملابسَ جاريةٍ بديعة الصنع وزيَّنتْ معاصِمَه وصدره بالأساور والقلائد ، وكان لا يزالُ خفيف شعر الشارب والعارضَيْن ، فسهل عليها إزالتهما ، وجَمَّلت وجههُ وعَطَّرت شعره ، وعصَّبتْ رأسه بالعصائب الرقيقة الموشَّاة الفاخرة ، فصار كحور الجنَان جمالاً وحُسناً ، فقالت له :

سِر أمامي متخطرًا كسير النساء ، وقدم الشمال وأخر اليمين ، فنعل كما أمرته فلما رأته أحسن السير والتقليد . قالت له :

هيّا بنا ، وقوِّ نفسك أمام الحجّاب والخدم ، ولا تخَفْ وعلى الله التوفيق .

ثم سارتْ وسار خلفها حتى أتت إلى القصر ، ودخلت ونعمةُ في إثرها ، فأراد الحاجبُ أن يمنعهُ ، فقالت له القهرمانة :

يا أنحسَ العبيد ، هذه جارية نُعم ، فكيف تمنعها من الدخول ؟ !

ثم قالت لنعمة :

ادخلي يا جارية :

فدخل نعمةُ مع العجوزِ ، وما زالا سائرين حتى وصلا إلى جناح الحريم ، فقالت له العجوز :

يا نعمة ، اشددْ عزمك ، وثبِّتْ قلبك ، وإذا ما اجتزنا باب الحريم فسأتركك حتى لا ينتبه لنا أحدٌ ، وعندما أتركك سِرْ عَلَى شمالكَ وعدَّ خمسةَ أبواب وادخل البابَ السادس ، ولا تخف ، وإذا كلمك أحدٌ فلا تَرُدَّ عليه .

فقال لها : سمعاً وطاعة .

فلما أرادا اجتياز باب الحريم اعترضهما الحاجب المكلف حراسته ، وسأل العجوز مَن تكون هذه الجارية ؟

قالت : إن سيدتنا نُعم تريدُ شراءها .

فقال الحاجب : ما يدخلُ أحدٌ إلا بإذن أمير المؤمنين .

فقالت العجوز : يا رجل عُدْ إلى صوابك ، وثب إلى رُشدك ، ولا تُعَرِّض نفسك لغضبِ السيدة نُعم ، فإن أمير المؤمنين يَغضب إذا غضِبَتْ ، فهى جارية الخليفة المقدمة عنده ، وقد تعلّق قلبُه بها . وما كِدنا نبتهج بشفائها ، حتى تُرِيدُ إغضابها ، وتتسبّب فى كدرها ، واعلم أنك إن تسبَّبْتَ فى ذلك فإنّ فيه حَتْماً قطعَ عُنقك ، فهذه الجارية طلبتْها وهى تودُّ شراءها ، وقد أحضرتُها لها بإذنها . ومن يدرى ، فلعلها لم تطلبْها إلا بعْدَ أن أعلمت أمير المؤمنين وأَذِن لها ؟ !

ثم وجَّهتْ حديثها إلى نعمة قائلة :

ادخلى يا جارية ، ولا تُعلِمى السيدةَ أن الْحاجب منعك من الدخول لئلّا تغضَب وقد يمتد غضبها إليه . ونحن لا نرضى له الأذى .

فطأطأ نعمةُ رأسه ، ودخل ، وأراد أن يسير إلى يساره كما أفهمته القهرمانة فارتبكَ وسار إلى يمينه ، ثم عد الأبواب الستّة ودخل . فوجد نفسه فى مقصورة فرشت بالديباج ، وأُسدلتْ عَلَى حِيطانها ستائر الحرير المذهّب ، وفى وسطها مبخرةٌ يتصاعَدُ منها بخور العودِ والعنْبر ، والمسك الأذفر ، ورأى فى صدر المكان سريرًا مفروشاً بالدِّيباج والدمقْس فجلس عليه نعمةُ يفكِّرُ فى أمره وينتظر ما سوف يحدُث .

فبينما هو فى هذه الحال ، دخلتْ عليه صاحبةُ المقصورة ، وكانت

أختَ الخليفة ، ومعها جاريتها ، فلما رأت الفتى جالساً ظنته جارية ، فتقدمتْ منه ، وقالت له :

من تكونين يا جارية ؟ وما خبرُكِ ؟! ومن دخل بك إلى هنا ؟

فلم يتكلّم نعمةُ ، ولم يردّ عليها جواباً ، لأنه وإن كان جماله من جمال النساء فإن صوته صوتُ الرجال .

فقالت : يا جاريةُ ، إن كنت من جوارى أخى وقد غضب عليك فأنا أسأله لكِ ، وأستعطفه عليك .

فالتفتَتْ أُخت الخليفة إلى جاريتها وقالت لها : قِفى عَلَى باب الغرفة ولا تدعى أحداً يدخل .

ثم تقدمت إلى نعمة ، وتأملت وجههُ ، فبهرت من جماله . فقالت :

يا صبية عرِّفينى ، من تكونين ؟! وما اسمك ؟! وما سببُ دخولك هنا ؟! فأنا لم يقع نظرى عليك فى قصرنا من قبل .

فظلّ نعمةُ عَلَى صمتهِ ، فداخل أُخت الخليفة شكٌ وارتابت فى الأمر وبدأت تغضبُ ، ووضعتْ يدها عَلَى رأسِ نعمة ، وأزاحتْ عنه الغطاء فعرفت الحْقيقةَ .

فقال لها نعمةُ : يا سيدتى ، أنا مَمْلوككِ فاشتريني ، وأنا مُستجيرٌ بكِ فأجيرينى .

قالت وقد أَخذتها الشفقة :

لا بأسَ عليك ، فمن أَنتَ ؟! ومن أَدخلكَ إلى غُرفتى هذه ؟



قال نعمة : أَنا أيتُها الملكة أعْرَفُ بنعمة بن الربيع الكوفِيّ ، وقد خاطَرْتُ بنفسى ، وأَلقيْتُ بها إلى المهالك لأجل زوجتى نُعم التى احتال عليها وَالِي الكوفةِ ، وأخذها وأَرسلَها إلى هُنا قَسْرًا .

فقالت : لا تَخَفْ ، لا بأسَ عليْكَ .

ثم نَادتْ جاريتها ، وقالت لها : امضى إلى مقصورة نُعم وادْعيها إلىَّ ، وكانت القهرمانة العجوز فى ذلك الوقت قد أَتَتْ إلى مقصورهَ نعم فوجدتها جالسةً وحيدة فسأَلتها :

هل وصلَ إليكِ سيِّدُكِ ؟

قالت : لا ، إننى لم أَره

فقالت القهرمانة ، وقد شحبَ لونها ، وزاغ بصرُها : لعلَّه أخطأَ فدخل مقصورة غير مقصورَتكِ .

فقالت نُعم : لا حولَ ولا قوة إلَّا بالله ، لقد لازمنا سوء الحظ حتى فى أحرج الأوقات ، ولقد فرغَتْ أعمارُنا ، وانتهت آجالُنا ، وجلستَا حزينتين تفكران .

وبينما هما جالستان ساهمتان حائرتان ، إذ بجاريةِ أُخت الخليفة داخلة عليهما ، فحيَّتْ ، وقالت لنُعم : إن مولاتى تدعوكِ إلى مقصورتها

فقالت : سمعاً وطاعة .

فقالت القهرمانةُ لها هامسةً : لعلّ سيدَكِ عندَ أُخت الخليفة ، وقد انكشفت الحِيلة .

وذهبت نُعم من فوْرِها إلى مقصورة أخت الخليفة، وقدماها تكادان لا تحملانها من فرط الارتجافِ .

فلما رأتها أختُ الخليفة داخِلةً قالت لها :

هذا زوجك نعمه أخطأ فدخل عنْدِى ، وليس عليك ولا عليه خوف إن شاء الله .

فلما سمعت نُعم من أخت الخليفة هذا الكلام اطمأنتْ نفسُها ، وسكن روعها ، وتقدمت إلى مولاها نعمة وقبلته ، ثم سقطا معاً من فرط التأثر مغشيًّا عليهما ، فلما أفاقا قالت لهما أخت الخليفة :

اجلسا لنُفَكِّرَ فى الخلاص من الأمرِ الذى وقعنا فيه .

فقالا : يا مولاتنا ، سمعاً وطاعة ، والامرُ لك

فأَمرت جاريتها بإحضار الطعام والشراب . فأحضرتْه ، وانتظم الثلاثةُ حول المائدة يأكلون ويشربون

فلما فرغوا ، قال نعمة :

ليت شعرى ماذا يكونُ بعد ذلك ؟ !

قالت أخت الْخليفة :

لا يكون إلا الخيرُ . قل يا نعمة ، هل تُحبُّ زوجتك حقًّا ؟

قال : يا سيدتى ، إن محبتها ملكتْ علىَّ جميع مشاعرِى ، وسيطرت على كل حواسى ودفعتنى إلى المخاطرة بروحى .

فقالت لنُعم : وأنت يا نُعم ، هل عندك مثل ما عندَه ؟

فأجابت : يا سيدتى ؛ إن محبته هى التى غيّرَت حالى ، وعصفت بكيـانى .

قالت : لا كان من يُفَرِّقُ بينكما ، فقرّا عيناً ، وطيبا نفساً . ثم استطردت قائلة لنُعم :

هل تجيدين الغناء يا نُعم ؟

فلما أجابتها بالإيجاب . أمرتْ جاريتَها أن تأتيها بعودٍ . فأخذت نعمُ العودَ وأصلحتْه ، واحتَضنته ، ثم أنشأت تغنّى بصوتٍ عذبٍ رخيم ، فكان سحراً جعلهم فى نشوةٍ ولذّةٍ وسرور .

وكلما فرغت من أنشودة أو صوتٍ ، استزاداها فزادتهما ، فنِعمةُ فرحٌ جذلانُ بلقائه إيّاها ، نشوانُ بسماعه صوتها الذى مضى عليه زمنٌ وهو محروم منه .

وأخت الخليفة كذلك فرحةٌ بفرحهما ، مسرورة بسرورهما ، معجبة برخامة صوت نُعم وعذوبته ، على كثرةِ ما سمعت من أصوات رخيمة فى مجالس أخيها من مغنيات وقيان .

وبينما هم سابحون فى بحرٍ من رخامة الصوت ، ولحن الشعر ، ونغم الوتر ، والوقتُ يمرُّ عليهم ، وهم لا يشعرون بمروره ، إذ دخل الخليفة عليهم ، مندفعاً إليهم بصدى الصوت الرنان الجميل ، فما كادوا يرونه حتى هبُّوا له ، وقبل نعمة ونُعم الأرض بين يديه .

فلما رأى الخليفة العود بيد نُعم ، وعرف أنها هى صاحبة الصوت الجميل زاد سرورًا ؛ وقال لها :

يا نُعم ، الحمد لله الذى شفاكِ ورعاكِ ، وأذهبَ عنك المرض ، ثم نظر إلى نعمة ، وقال لأخته :

يا أختى ، من هذه الجارية ؟ !

قالت وهى تضحك : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن لكَ جارية أنيسة لا تأكل نُعم ولا تشربُ إلا بها ، فقال : والله إنها لمليحة مثلها ، وفى غدٍ أخلى لها مقصورةً بجانب مقصورةِ نُعم إكرامًا لها .

ودعت أخت الخليفة أخاها إلى الجلوسِ فى مجلسها ، ودعت له بالطّعام والشراب ، فلما فرغ أومأ إلى نُعم أن تنشد له شيئًا ، فأخذت العود وشدته ، وما لبث المكانُ أن انتشى مردداً صدى صوتها العذب الحنون .

وطرب الخليفة أيّما طرب ، وطلبَ منها أن تزيده من أنغامِها وألحانها وهو يقول :

لله درُّك يا نُعم ، ما أفصحَ لسانَك ! ! وأوضح بيانك ! ! وأرخَم صوتك ! ! وما زالوا على هذا الحال حتى انتصف الليل ، فقالت أختِ الخليفة لأخيها اسمع يا أمير المؤمنين . لقد قرأتُ قصةً فى بعض الكتبِ عن أرباب المراتب ، وأودُّ أن آخذ رَأيكَ فيها .

فقال : وما هى هذه القصة ؟

قالت : إنه كان بمدينةِ الكوفةِ فتًى يسمى نعمة بن الربيع ، وكان له

جارية يحبُّها وتحبه ، شبَّتْ وتربّتْ معه . فاما كبرا أعتقها وتزوَّجها . ولكن لم يتمتعا طويلا بحبِّهما وسعادتهما ، فقد رماهما الدهرُ بنكباته . وجار عليهما الزمان بآفاته . فلعب عليهما الماكرون بحيلهم ، حتى فرَّقوا بينهما ، وانتزعوها منه ظُلماً وباعوها لبعض الملوك بعشرة آلاف دينار ، ففارقَ نعمة أهله ودارَه وبلده ، وسافر فى طلبها ، غير ضَنين ببذل المال ، ولا آبهٍ للمشقة والتَّعب . حتى التقى بزوجته بعد أن خاطرَ بروحه ، معرِّضاً إيَّاها للتَّلف . وما كادَ يلقاها ، ويجلسُ معها حتى دخل عليهما الملكُ الذى كان قد اشتراها مِمَّنْ سَرقها فعجَّل عليهما ، وأمر بقتلهما .

فما تقولُ فى ظلم هذا الملك يا أمير المؤمنين ؟

فقال الخليفةُ : إنَّ هذا لشىء عجيبٌ ، فقد كان ينبغى على ذلكَ الملك أن يعفو عنهُما ، ولو تأنَّى لأحسنَ فى ثلاثة أشياء ، أولها أنه حَفِظ لهما حبَّهما ، ثانيها أنهما بمنزله ، وتحتَ يده . فيجب أن يُنزلهما منزلة الضَّيف بالذى تقتضيه المروءة أن يكرمه . وثالثها ، أن هذا الأمرَ يتعلَّق به ، ويجب أن يكون فيه حَكماً عدلاً ، وإلَّا فما كانَ أهلاً أن يحكمُ بين الناس .

لذلك أرى أن هذا الملك قد فعل فعلاً لا يُشبهُ فِعل الملوكِ السمحاء الذين لا يتعجلونَ العقوبةَ ، ولا يُصدرُون إلَّا عن روية ، ولا سيما إذا كان الأمرُ يتعلَّقُ بشخصهم ، فلا يَتصلُ بالدولة وشئونها ، ولا يؤثِّرُ فى الرعيةِ وحياتها وأمنها .

فانبسطت أسارير وَجْهِهَا وقالت :

يا أَخى من حَكَمَ عَلَى نفسه بشيءٍ لزمهُ القيام بِهِ ، والعمل بقوله . وأنتَ قد حكمتَ عَلَى نفسكَ بهذا الحكم . ثم قالت :

يا نعمة ، قف عَلَى قدميْكَ ، وكذلك أنتِ يا نُعم .

وقالت للخليفة : يا أَمير المؤمنين إن هذه الفتاةَ الواقفةَ « وأشارت إلى نُعم » هي نُعم الزوجة المسروقة من زوجها ، سرقها واليكَ بالكوفةِ ، وأَرسلها إليك ، مُدَّعياً أنهُ قد اشتراها بعشرةِ آلاف دينار كَذِباً ، وهذا الواقف هو نعمةُ بن الربيع زوجُهَا ، فأَنَا أَستحلفُك بالله ، وأَسأَلك بحرمة آبائك الطاهرين أن تعفو عنهما وتصفح عن جريرتهما ، إنْ عُدَّ مجيء زوجهَا خِفية جريرة ، وتدعو لهما ، وتباركهُمَا ، لتغنَمَ أَجرَهُما وثوابهما ، فإنهما فى قَبضتِك ، وتحت رحمتك ، وأنا الشفيعةُ فيهما ، المستوهبة دَمهما .

وكان الخليفة قد تملَكتْهُ الدَّهشة ، وأخذهُ العجبُ مما يسمعُ من أقوالِ أُختِه . وما تُبَيِّنُ له من حقائق خافِية .

فلما عرف السبب ، وأدرك مقصدها قال :

صدقتِ يا أُختاه ، أَنَا حكمتُ بذلك ، وما أَحكمُ بشيءٍ وأرجع فيه ، ثم قال لنُعم :

يا نُعم ، هل هذا زَوْجُك ؟

قالت : نعم يا أَمير المؤمنين .

قال : لا بأس عليكما ، فقد أرجعتك إليه ، لتعيشا معاً فى سعادة وهناءة . ثم وجّه حديثه لنعمة قائلا :

ولكن يا نعمة : كيف عرفتَ مكانها ؟

فقال نعمة : يا أمير المؤمنين ، اسمع خبرى ، وأنصت لقصتى ، فوالله لن أخفى عنكَ شيئاً . وإنّا لنطمعُ فى سماحتك ، وأعتقد أن حِلمك سيسعُنى ، ويسع كلّ من عاونَنى حتى رأيتنى فى قصرِ الخلافة عَلَى الحالة التى أنا عليها ثم قص عليه ما فعل هو والحكيمُ الأعجمى . وما فعلتْه القهرمانة معهُ ، وكيف دخلتْ به القصر ، وكيف خلط هو بين الأبواب .

فازداد الخليفة عجباً .

وفى الصباح أَمرَ باستدعاء الطبيب الأعجمى ، وأثنى عليه ، وكافأه ، وعيَّنهُ فى خدمتِه ، وهو يقول : إنَّ مَن يكونُ فى مثل عقلك وتدبيرك لا يصحّ أن نتركه ، وإن من صالحِنا أن نجعله فى مقدمة خواصّنا .

وأحسنَ إلى القهرمانةِ العجوز ، وأَنعم عليها بما جعلَ لسانها يلهجُ بالشكر ، ولا يكفّ عن الدعاء ، وأكرمَ نُعم ونعمة ، ودعاهُما إلى الإقامة فى ضيافتِه سبْعة أَيام ، قضياها فى سرورٍ وبهجةٍ ، ومآدب ، وحفلات ، ثم استأذنا فى السفرِ إلى الكوفة ، فأذن لهما .

فسافرا بصحبةِ إحدى القوافل .

وعَلَى بُعد الشقة وزيادة المشقّة ، وكثرة متاعب السفر . لم يحسَّا

تعباً ، بل مَرَّ عليهما الوقت ، وكأنهما فى نزهة جميلةٍ قصيرة ، يتمتعان بمباهجها ، ويتسليان بمشاهِدِهاَ .

وكانت فرحةُ أُم نعمة وأَبيه بعودةِ ولدِهما إليهما مُعافَى سعيدًا ، ومعهُ زوجته تفوق الوصف .

وعاشوا جميعاً سُعداء بِعَوْدةِ سعادَتِهم ، فرِحين باجتماع شملهم .



نور الدين وأنيس الجليس

(١)

كان بالبصرة حاكم يدعى محمد بن سليمان الزينى ، قام فى رعيته ، قيام الاب الرحيم فى ولده ، والقاضى العادل فى مجلس قضائه ، والسياسى الحكيم البصير بتدبير أمره . وقد أسس بنيان ملكه على تقوى الله وطاعته ، داعياً إلى دينه ، مبسوط اليد فى سبيله ، وكان له وزيران :

أما أحدهما فهو الوزير الفضل بن خاقان ، وكان خيِّرًا ، سَمْح النفس ، نيِّر البصيرة ، صادق المشورة ، فأجمع الناس على محبته ، والاعتزاز به .

وأما الآخر فهو المعين بن ساوى ، وكان فاسد الطوية ، خبيث الفطرة ، يفور أثرة وحقداً ، وشراً على الناس وكيداً . فهم لذلك يمقتونه ، ولا يطمئنون إليه .

وذات يوم أمر الملك وزيره الفضل ، فى جمع من وزرائه وحاشيته ، أن يشترى له جارية تكون لذة العين ، وبهجة القلب ، خَلقاً وخُلقاً ، فقال له الفضل : مثل هذه الجارية قد يبلغ ثمنها عشرة آلاف دينار ، فأمر الملك أمين خزينته أن يعطيه هذا المبلغ من المال

أخذ الفضل المال ، وقام ساعياً فى الحصول عليها . فأصدر أمره إلى النخاسين أن يعرضوا عليه الطبقة العليا من الجوارى ، قبل أن يبرموا فيهن لأحد بيعاً

وبعد شهر جاءه نخاس ومعه جارية ملء العين والقلب : هيفاء غضة ، فرعاء بضة ، ساحرة العينين ، وردية الخدين ، ناضرة الجبين ، فاحمة الشعر ، وهى بعد ذلك رقيقة الحواشى ، عذبة الصوت ، حلوة النغم ، جمَّلها الله بخلق سمح كريم ، فزادت جمالاً على جمال وسحراً على سحر .

وقعت عليها عين الوزير ، فأشرق وجهه سروراً بها ، فقال النخاس : هى أنيس الجليس ، وهى إلى خلقها القويم مثقفة مهذبة ، تجيد الخط ، وتحذق علوم اللغة والنحو ، وهى عَلَى عِلم بالتفسير ، وأصول الفقه ،

والطب والتقويم ؛ وتكاد تنطق آلات الطرب تحت أناملها ؛ وستنال من الحاكم إعجابه ورضاه .

لم يتردد الفضل فى شرائها ، فسأل النخاس عن ثمنها ، فأجابه : عشرة آلاف دينار ؛ فلم يساومه الوزير ، ونقده عشرة الآلاف ، فقبضها ، وقال : لى كلمة إن أذنت لى بها .

فقال الوزير : قل ما شئت ، وهات ما عندك .

فقال : أرى على الجارية آثار التعب ، فقد أجهدها طول الطريق ، ومشقة السفر ، ونقص العناية بها ؛ فلو حبستها فى دارك بعض الوقت ، وكفلتها برعايتك وكرمك ، ومتعتها ببرك ، وآنستها بلطفك ، وأشعرتها عطفك وعنايتك — فارت محاسنها ، وبان جمالها ، فتقع من نفس الحاكم حينما تقدمها إليه موقعاً حسنا .

فرأى الوزير فيما قال النخاس وجه الصواب، وقرر تنفيذه .

وتفيأت الجارية فى قصره ، ظلال نعمته وكرمه ، فزادت بذلك نضرة وجمالا .

وكان للوزير ولد يدعى نور الدين ، وكان هذا الفتى آية من آيات الله فى حسنه ، وروعة جماله ، وحسن قده واعتداله . أعيا نور الدين والديه : فكان عابثاً ماجناً ، لا تراه إلا لاعباً لاهياً ، لا يحمل للدنيا همّا ، ولا يحسب لها حساباً . فخشى أبوه أن يفتتن بالجارية ، أو يفتنه جمالها . فقال لها :

لقد اشتريتك لسيدنا ، وحاكم مدينتنا الذى ندين له بالولاء والمحبة ، وحبستك فى دارى حتى تأخذى حظك من الراحة ، فاحذرى أن تقع عين ابنى عليك ، أو يسمع لك صوتا .

ولكن الوزير فاته أن ذلك الكلام نبه ذهن الجارية ، ووجهها لشىء ما كان يخطر لها على بال ؛ فقد فطر المرء على أن يتشبث بما حرمه ، ويعلق هواه بما حبس عنه ، وحيل بينه وبينه . فلم تر بأساً أن تحتال لرؤيته ، على سبيل العلم والمعرفة ، لأنها يحفظها منه بقية من دين ، وخلق كريم .

ولكنها لم تكد تقع عينها على نور الدين حتى وقع من قلبها ، وتمكن منه لبارع حسنه ، وفاتن جماله ، وخفة روحه .

وقالت فى نفسها : وما يفيدنى بيت الملك إذا لم يشبع هوى ، ويسعد قلباً ، ويرض نفسا ؟ !

وهل المال والقوة والجاه ، وما سخر للإنسان من مظاهر الكون — إلا لسعادة النفس ؟ !

وما دامت قد قيضت لى فكيف أكفر بها ، وأقيم سدا بينى وبينها ؟

فلأمكن هذا الشاب من رؤيتى فإن نزلت من قلبه المنزلة التى نزلها من قلبى ، فلا ضير أن يجمعنا الدين ، ويربطنا الزواج .

ثم حاولت أن تطل من النافذة بحيث يراها ، أو تخطر فى ردهة الدار حيث يقع بصره عليها ، أو تذهب إلى غرفة سيدتها حينما يكون ابنها فى زيارتها ؛ فرآها نور الدين ، وملأ عينيه منها ، فوقعت من قلبه كما وقع من

قلبها ؛ والتقيا على الحب الكريم الطّاهر الذى لا تشوبه شائبة من شك ، وتواعدا على الزواج فى غفلة من أعين الرقباء من رجال القصر وجواريه .

تحقق حلم الجارية ؛ وظنت فى الشاب أن من وراء خَلْقه القويم ، الخُلُق الكريم : فذهبا خفية إلى المأذون الشرعى ، وأبرما عنده عقد الزواج ، ثم رجعا ؛ وجعلا يجتمعان دون أن يشعر أحد بهما .

وذات مرة لمحته أمه خارجاً من حجرتها ، فارتابت فى أمره ، وخفت إليها مسرعة ، تسألها عما دعا نور الدين إلى دخول حجرتها ، فلم تر الفتاة بدًّا من أن تصارح سيدتها بحقيقة ما جرى ؛ فأسقط فى يد الأم ، ودمعت عيناها من الهم والغم ، ورأت أنه من الحزم أن تخبر زوجها بما حدث.

ولما أخبرت والده الخبر ، دارت عيناه فى رأسه غما وحزنا ، وقال : قتلنا نور الدين بفعلته .

فقالت أمه : لا يحزنك ما جرى ، وخذ من مالى عشرة آلاف دينار لتشترى للحاكم مثل هذه الجارية ، فالجوارى غيرها كثير .

فقال : لو أن الأمر ينتهى عندما تقولين لهان الخطب ، وخف حمله ؛ ولكن المعين بن ساوى يترصدنى ، ولا يترك فرصة دون أن يوقع بى ، وسيخبر الحاكم أنى آثرت ابنى عليه ، ولا يتورع أن يستأذنه فيهجم على بيتى ، ويستخرج منه الجارية ، ويحملها إليه ، ويكون ذلك دليل صدق لوشايته ، وإذا ذاك يحل علىّ غضب الحاكم وعقوبته :

فقالت زوجه : مادمت مخلصاً فى ولائك للحاكم ، وفيًّا له ، صادق

النية ، برىء العمل — فأسلم إلى الله أمرك ، وارتقب حمايته ، فإنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى .

(٢)

أما نور الدين فقد عرف أن أمه لمحته ، وأيقن أنها ستخبر والده ، فأخذ يفكر فى أمره وأمر الجارية ، ويقدر ما عسى أن يحدث حين يعلم أبوه ، فإن فى أبيه غلظة وقسوة ؛ ولم يجد أبعد له من نقمة أبيه ، ولا أروح لنفسه ، من أن يقضى يومه وجزءا من الليل فى البستان ، حتى تسكن حركة القصر ؛ ثم يأوى إلى مضجعه .

وحدثته نفسه أن يذهب إلى أمه متوسلا ألا تخبر أباه ، ولكنه لم يستطع أن يفعل حياء من أمه ، وخشية ألا تطاوعه لأنها تعتبر كتمان هذا الأمر على أبيه خيانة له ، ولا سيما أنه كان أوصاها من قبل ألا تغمض عينها عن الجارية حتى لا تقع فى شرك نور الدين ، أو حتى لا توقعه هى فى شركها .

ورأت الأم أن ابنها وزوجه فى هزال وعلة ، من ألم الفراق والوحدة ، فقالت لزوجها : إن ابنك يحسب لك ألف حساب ، ويخشى أن تكون غاضبا ، فاعتزل الجارية ، ولكن كلا منهما دائم التفكير فى صاحبه ، ويظهر أنهما لا ينعمان بنوم ، ولا يهنآن بطعام ، وقد أصابهما هزال شديد ، وقد يصيبهما سوء إن دامت بهما هذه الحال .

فقال : وماذا أفعل ؟



فقالت : أن تجمع بينهما ، وتدعو لهما ، فعسى أن يستجيب الله ويهدى ابنك صراطه المستقيم .

فارتقب الفضل عوده ابنه من بستانه ، وأجلسه بين يديه ، إن جحود النعمة سبيل إلى زوالها ، وقد وهب الله لك تلك الج ورزقك بها من حيث لا تحتسب ، فأمسكها بمعروف ، وأنص نفسك ، ولا تضارها ، ولا تجنح عن سنة الدين ونهجه القويم ، وا يجعل لك مخرجا ، ويهيئ لك من كل أمر رشدا .

فقال نور الدين : وستجدنى إن شاء الله مستقيما خيِّراً ، ولا لك نصحاً ولا أمرا .

ثم أذن له والده أن يسكن إلى زوجه ، ويستأنف حياته م اطمئنان ودعة ، فقبل نور الدين يده ، وانقلب إلى زوجه مسرورا

وما كادت تنظره ، حتى غرق منها فى نظرة عابثة باكية ، وة كيف هان عليك أن تهجرنى ؟! فقص عليها ما جرى ، وذهب كل بأس وحزن ، وعاشا فى صفاء ووئام سنة كاملة ، أنسى الله فيه قصة الجارية وطلبه إياها

وكان الوزير المعين بن ساوى يعلم ذلك ، ولكنه يرتقب فرصا من فوزه فى وشايته . فلبث يرتقب ويرتقب ، حتى جاء ما لا وعده ، ولحق الفضل بربه . فطاف بالناس : عامهم وخاصهم — من الحزن الأليم على فقده ، وشيع إلى قبره ، بين مظاهر الأسى والـ

لزم نور الدين داره بعد موت أبيه ، وترك ماله لوكيله ، يدير شئونه ، وكان بيته مقصد الوافدين ، وبسط يده كل البسط بالعطاء والكرم ، غير عابئ بما قد ينتظره من فاقة وعدم فنصح له وكيله ألا يرهق ماله بكثرة الإنفاق ، وإلا كان مصيره النفاد .

ولكن نور الدين لم يستمع إلى نصحه ؛ وظل يجمع حوله الخلان والأصدقاء ، ويغدق عليهم ، وظل يلح عليه كرمه ، حتى نفد ماله .

وبينما هو جالس فى صحبه ، الذين كانوا كالعلق ، يختلفون إليه فى الأبكار والعشايا لامتصاص ثروته ، إذ طرق بابه طارق ؛ فخف نور الدين إليه ، وتبعه أحد أصحابه وهو لا يشعر به ، فوجد الطارق وكيله ، وقرأ على وجهه ما ينبئ عن خطب وهم ، فقال : ما وراءك ؟

فقال الوكيل : وقع ما كنت أخشاه ، فقد نفد مالك ، ولم يبق منه ما يمسك رمقا

فلما سمع ذلك صاحبه الذى تبعه ، ارتد على عقبه مسرعاً إلى أصحابه ، وهمس فى آذانهم بما سمعه ؛ فقال بعضهم لبعض :

مالنا إليه حينئذ من حاجة ، وما علينا إلا أن ننفض من حوله .

فلما رجع نور الدين وعلى وجهه سمات من هم ناصب ، قال أحدهم : أستأذنك فى الانصراف ، فإن زوجى تلد الليلة ، ولعلها فى حاجة إلى معونتى ، وغادر المجلس

وقال آخر : لى صديق وعدته أن أنتظره الليلة فى دارى ، وأحب أن

أفى بوعدى ، مخافة أن يجىء فلا يجدنى . وغادر المجلس أيضا .

وقال ثالث : لحق بى خادمى وأنا قادم إليك ، فأخبرنى أن ابنى يشكو ألماً فى بطنه ، فأرجأت الانقلاب إليه ، حتى أحظى برؤيتك والاطمئنان عليك . وغادر المجلس أيضا .

وطفق صحبه ، يتسللون من مجلسه ، واحدا فى إثر آخر ، ملتمسين مختلف الأعذار ، حتى انفض المجلس جميعه ، ولم يبق أحد غيره . فدعا زوجته وأخبرها بما جرى ؛ فقالت : هممت وقتا ما أن أنذرك هذا المصير ، فعرفت أن خلطاء السوء ، ورفاق الشر — يحيطون بك ويملكون عليك سمعك وبصرك وقلبك ؛ وأيقنت أن كلامى لن يفيد ، فلن تنتصح ، فتركتك للزمان ، وأمسكت عن الكلام ، ورجوت لك إقبالا سعيدا ، ومجدا سابغا ، وهذا قضاء الله الذى لا مفر منه إلا إليه .

فقال نور الدين : لا إخال أصحابى على كثرتهم ، ينوءون بعبء واحد مثلى ، كان لهم ينبوعا فياضاً بالخير والعطاء .

فقالت : إن أملك هذا فيهم كمن يأمل فى الشيطان عملا صالحا .

فقال نور الدين : سأختبرهم جميعهم ، وسأقصد الساعة من آنس فيه كرم النفس وصادق الوفاء ، أقترض منه شيئاً من المال ، يعيننى على التجارة ، حتى يبدل الله من عسرى هذا يسرا .

ثم ذهب إلى أحدهم وطرق بابه ، فأجابته جاريته : من الطارق ؟

فقال : أخبرى سيدك أن نور الدين بالباب يطلب لقاءك .

فعادت إلى داخل البيت ، وبعد مدة رجعت إليه قائلة : إن سيدى غير موجود فذهب إلى ثان وثالث ورابع ، فلم يلق إلا ما لقيه من صديقه الأول .

فرجع إلى زوجه أنيس الجليس حزيناً ، مكسور الخاطر ، شارد العقل ،زائغ البصر ، متتابع النفس ، وقال ما رأيت أحداً منهم أرانى وجهه.

فقالت : بع مالا ضرورة له من أثاث البيت ، حتى يبسط الله لنا رزقه ، أو ينفذ فينا حكمه ، وجعل يبيع الأثاث تباعاً حتى لم يبق منه شيء ، ولم يفتح الله عليه بشيء ، فأشارت عليه أن يبيعها ويعمل فى التجارة بثمنها ، حتى يقيض الله له ثراء ولهما اجتماعا .

وخرج بها نور الدين إلى السوق ، وفى قلبيهما من الحسرة ما تنوء به الجبال ، وتأبى أن تحمله ، فالتقى بالنخاس الذى كان قد اشتراها لوالده فاستقبله استقبالا كريماً ، وعرف غايته ، وطمأنه على ثمن لها عظيم ، وقام مناديا :

ما كل بيضاء شحمة ، ولا كل حمراء لحمة ، ولا كل صهباء خمرة ، ولا كل سمراء تمرة ؛ هذه الدرة اليتيمة والجوهرة الكريمة ، جمال باهر ، وخلق طاهر ، وعلم كثير ، وأدب رائع ؛ فبلغ ثمنها أربعة آلاف وخمسمائة دينار .

وكان الوزير المعين بن ساوى فى السوق ، فلما سمع النخاس ينادى ، ورأى نور الدين بجانبه عرف أنه أفلس ، حتى لم يبق معه شيء فخرج

يبيع الجارية ، وذلك ما كان يتوقعه بعد موت والده ، فأغراه الشر الذى فطر عليه أن يشتريها لنفسه على أن يأكل ثمنها بالباطل ، ويفجعه فيها ؛ فأرسل إلى النخاس رسولا يبلغه أن الوزير اشتراها بأربعة آلاف دينار . فأمسك عن النداء وانصرف المشترون عنها ؛ خوفاً من بطش الوزير وظلمه .

ثم مال النخاس على نور الدين ، وألقى فى أذنه : ضاعت الجارية ، وخسرت الثمن .

فقال نور الدين : وكيف يكون هذا ؟ !

فقال النخاس : كتب عليك أن يحضر إلى السوق الوزير المعين بن ساوى ؛ وهو رجل مشئوم الطلعة ، زرى السجية . ممسوخ الفطرة ، حليف الشيطان . وعدو الإنسان ؛ احتجز الجارية دون الناس لنفسه ، وجعل ثمنها أربعة آلاف دينار ، ولكنه لن يعطى شيئاً منها . وخطته فى مثل ذلك أن يكتب أمراً إلى وكيله فى إدارة أمواله أن يدفع لحامله المبلغ المبين فى ذلك الأمر ؛ فإذا ما ذهب صاحبه إليه ، وجد ألواناً من المراوغة والمماطلة ، تنتهى بتمزيق الأمر وطرد حامله ، فيرجع صفر اليدين لا جارية استبقى ، ولا ثمناً أخذ .

ولما لوالدك علينا وعلى الناس من فضل ونعمة ، فإنى أدلك على حيلة تقيك شر هذا الظالم الآثم . ذلك أن تأتى إلى الجارية أنيس الجليس ، وتصك وجهها قائلا : إياك بعد اليوم أن تعصى لى أمراً ، هيا اذهبى

إلى الدار فقد بررت بيمينى ، وعرضتك للبيع ، ثم تسوقها إلى دارك .

فقال نور الدين : أشكر لك هذا العون الحميد

ولما تقدم نور الدين يأخذ جاريته اغتاظ الوزير ، فزجره وقال : كيف تسخر من الناس بإحضار الجارية لبيع كذب ؟

فقال نور الدين : إنها ملكى أتصرف فيها حسب إرادتى .

فقال الوزير : ووقتنا ملكنا ، وليس لك أن تضيعه علينا .

فقال نور الدين : لئن كان وقتك ملكك ، فليس لك أن تنفقه فى أكل أموال الناس بالباطل ؛ فإن كنت تريد الشراء بالحق فادفع من فورك الثمن الذى أرتضيه .

فقال الوزير : ولا بد أن أشتريها بأربعة آلاف دينار على أن تأخذها من وكيلى وجذب الجارية إليه .

فلم يطق نور الدين صبراً على هذا الظلم الصارخ ، وقبض بيده على جيبه ، وجذبه جذبة عنيفة أسقطته فى الطين عن جواده فهمَّ من مع الوزير من المماليك أن يضربوا نور الدين . فقال جمع الحاضرين . هذا وزير، وذلك ابن وزير ، وقد ينتهى ما بينهما من شقاق ، فلا تذكوا ناره بتدخلكم ، وإلا عرضتم أنفسكم لثورة جموع الناس عليكم .

فأدرك الوزير وخامة العقبى ، وأشار إلى أعوانه أن يكفوا . ثم ذهب إلى الوالى ، فى هيئته هذه الزرية ، يشكو حاله ، ويوقع بينه وبين نور الدين .

وهناك قال : أرأيت كيف نضام فى سلطانك ، ونذل فى حكمك . وعزنا من عزك ، وجاهنا من جاهك ؟ !

عزيز علينا — يا مولاى — أن يظلمنا زمان أنت فيه ، وأن تأكلنا كلابه ونحن رجالك .

فقال الملك : ومن فعل بك هذا ؟

فقال الوزير : ذهبت إلى السوق لأشترى جارية ، فألفيت نور الدين ابن الفضل يبيع جارية ما رأيت مثلها جمالا وخلقاً وعلما ، فسألت النخاس عنها فقال : هذه كان الفضل بن خاقان اشتراها لحضرتك بعشرة آلاف دينار ، كان قد أخذها من أمين خزانتك ليبتاع الجارية التى أردتها فلما رآها الفضل ذات جمال رائع ، وعلم واسع ، وخلق كريم — آثر ابنه نور الدين عليك ، وجعلها له ، ولما مات ، وتحامل ابنه على ماله بالإسراف حتى نفد – اضطر إلى أن يبيع تلك الجارية ،فاشتريتها بأربعة آلاف دينار ؛ ولكنه أبى أن يبيعها لى ، وقال : تكون لليهود ، وللمجوس ، ولا تكون لك . فقلت : إنما أردتها لمولاى الوالى الذى دفع ثمنها لأبيك ؛ فتطاول علىّ بحمقه ، ورمانى فى الوحل على مشهد من الناس صغيرهم وكبيرهم ، عظيمهم وحقيرهم ، فلم أشأ أن أسىء إليه ، واخترت أن يكون أمره إليك.

فغضب الوالى ، وبدت آثار الغيظ على وجهه ، وكلف أربعين من جنده أن يأتوا بنور الدين وجاريته ، فصدعوا بأمره ، وأسرعوا إليه فى داره .

وكان قد سبقهم إلى نور الدين ، أحد المماليك الذين لا يضيع العرف لديهم ، وكان يدعى علاء الدين سنجر . فأمر نور الدين أن يفر بجاريته ، ويهاجر من المدينة ، وأعطاه خمسين ديناراً من ماله ، يستعين بها فى هجرته ، معتذراً بضيق ذات يده ، وأنذره إن تثاقل ولم يبادر ، أخذه هو وجاريته إلى الحاكم فقتلهما ، لأن الوزير المعين بن ساوى ، أوغر صدره عليهما ؛ وقص المملوك ما قاله .

(٣)

تنكر نور الدين وجاريته ، وغادرا البيت إلى الساحل ، وهناك أقلهم مركب إلى دارالسلام .

أرسل الملك أربعين جندياً إلى بيت نور الدين ، ففتحوه ، وكبسوه ، وفتشوا فيه ، فلم يعثروا على أحد ، فرجعوا إلى سيدهم وأخبروه ، فأصدر أمره بالبحث عنه فى كل زاوية من زوايا الأرض وإحضاره ، وفرض أشد العقوبة على من يخفيه ، أو يعاونه على الاختفاء ، وجعل لمن يحضره جائزة سنية ؛ ولكن البحث لم يُجْدِ شيئاً .

نزل نور الدين وجاريته بغداد فى وقت كان الربيع قد بدأ ، فجرى ماء الحياة فى الأشجار ، ونشطت الأطيار ، وتحسن الجو : فالأشجار مورقة ، والأزهار يانعة ، والنسيم عليل ، والماء جار سلسبيل .

وما زالا سائرين فى البساتين ، حتى انتهيا إلى طريق بين بساتين تنتهى بباب مقفل ، وعلى جانبيه مصطبتان متقابلتان ؛ فخطر لهما أن يجلسا

على إحداهما للراحة قليلا ، ولـكن التعب لم يمهلهما حتى أسلمهما إلى نوم عميق .

وكان جلوسهما أمام بستان للخليفة هارون الرشيد ، فخرج بستانيه الشيخ إبراهيم ، فوجدهما نائمين ؛ فاستعجب مما رأى : رجل وامرأة نائمان على مصطبة أمام بستان الخليفة ! فأيقظ نور الدين ليسأله عن نفسه ، وعما أتى به . فأجابه فى صوت محزون ، يمزق الألم قلبه : نحن غرباء قادنا السير على غير هدى إلى هذا المـكان ، فجلسنا فى ضيافة نسيمه العطر ، وهدوئه الآمن ؛ فأخذتنا سنة من النوم حتى أيقظتنا .

فقال البستانى : ولن أكون أقل من الطبيعة إكراماً للغريب ، وعطفاً عليه ؛ قوما معى إلى هذا البستان الذى ورثته عن أبى — وقد أخفى عليهما أنه للخليفة حتى لا يمتنعا عن دخوله — فاستجابا لدعوته ، وصحباه إلى بستانه ، فرأيا فواكه وأعنابا ، وجنات ألفافا ، وأنهاراً جارية ، وطيوراً مغردة ، تمر بها مواكب النسيم الرخية ، فتغنى الطيور على إيقاع من تصفيق الأوراق ، وحفيف الأشجار ، وهى سكرى من نوافح الأزهار .

وساروا جميعاً إلى قصر الخليفة الذى أقامه ليختلف إليه من حين إلى حين ، كلما أراد النزهة والراحة من أعباء الملك ومتاعبه ، وصعدوا فيه إلى إيوانه العلوى ، وكان به ثلاثون حجرة ، بكل سقف من سُقُفها قنديل مدلى ، وتدلت من سقف الإيوان ثريات بها شموع معدة للإضاءة ، وفرشت أرضه بطنافس عجمية ، وصفت بجنباته الـكراسى العاجية ، ذات المقاعد

الوثيرة ؛ وتوسطت ساحته منضدة قوائمها من الأبنوس المطعم بالذهب والفضة ، هيئت لتكون مجلساً للمائدة ؛ فجلسوا على الكراسي حولها ثم استأذنهما الشيخ إبراهيم أن يحضر لهما ما تيسر من الزاد ، يسكتون به أطيط الأمعاء ، ويؤدى به الواجب لضيوفه الكرام؛ فلما أحضر الطعام أكلا حتى شبعا ، وشربا حتى رويا .

وأنس نور الدين من الشيخ إبراهيم صدق الضيافة ، وإكرام الوفادة فطلب إليه شيئاً من الشراب ينسيه هو وجاريته ما ثار فى خواطرهما من قاسى الماضى القريب . ففهم الشيخ إبراهيم أنه الخمر ، وقال : أعوذ بالله أن تكون لى يد فى إحضار شراب خبيث حرمه الله ؛ فقد أنكرته على نفسى منذ ثلاثة عشر عاما ، وقد لعن النبىّ صلى الله عليه وسلم شاربها ، وعاصرها ، وحاملها .

فقال نور الدين : وإذا لم تكن واحداً منهم فهل تصيبك اللعنة ؟ !

فقال : إذا لم أكن منهم فلن يضيرنى شىء .

فقال : خذ هذين الدينارين ، واشتر بهما خمرا ، واحملها على حمار من عندك ؛ وإذ ذاك لا تكون شارباً . ولا عاصراً ولا حاملا .

فقهقه الشيخ إبراهيم وقال : ما رأيت أظرف منك شاباً ، ادخل هذه الحجرة وأحضر منها ما تشاء من صنوف الخمر التى أعدت لكبار الزائرين حين يفدون إلينا .

فبدت على وجه نور الدين وجاريته أمارات من خوف وقلق ،

فابتدرهما الشيخ إبراهيم قائلا : ذلك بستان أمير المؤمنين ، وهذا قصره ، وأنا بستانيه ، ولا بأس عليكما فإنه لن يحضر إلا بعد ثلاث ليال ، فطيبا نفساً وقرا عينا ، وخذا حظكما فى كنف هذا القصر العظيم .

فدخل نور الدين الحجرة ، فأدهشه ما رأى من أوانى الذهب والفضة ، وأكواب يكاد بريقها يضىء ، فأحضر ما شاء صنوف الخمر وأكوابها ، ووضعها بينهم على المنضدة ، وجعلا يشربان ، والشيخ إبراهيم يعف عن مشاركتهما على الرغم من إلحاح نور الدين عليه ، معتذرًا بتوبته ، وإقلاعه عنها ، وزهده فيها ؛ لأنها متلفة للمال ، مضرة بالصحة ، مفسدة للدين ، مغضبة للرب ، منقصة للهيبة ، مذهبة للعقل .

فجعلت الجارية تروضه ، وتؤلف نفسه ، وتغريه بشتى وسائل الإغراء ؛ حتى سلس قياده فشرب وعصى ، وتجرع الكأس الأولى ، فاستمر هواه ، وأتبعها ثانية وثالثة وكان على مذهبهما فى احتسائها ، والرغبة فيها ولما تحكمت فى رءوسهم أجمعين استأذنت الجارية الشيخ أن توقد الشموع المصفوفة ، وتفتح الشبابيك المقفلة ، فقال : على أن يكون بعضها ، ولكنها لم تبق منها شيئاً ، فظهر الإيوان مفتحة شبابيكه ، موقدة شموعه ، فنم ذلك عن وجود أحد فيه .

وحانت من الخليفة وقتئذ التفاتة نحو بستانه ، فرآه يتألق نورًا ، وقد فتحت شبابيك إيوانه ؛ فهمّه ما رأى ، وتملكه عجب شديد ؛ لأنه لم يكن يجرؤ أحد غيره على أن يدخل قصره ، وقال : علىّ بجعفر البرمكى ؛

فذهب الخدم على عجل إلى دار جعفر ، وأخبروه أن الخليفة يطلبه ، ويستعجل حضوره فذهب إليه مسرعا .

ولما مثل بين يديه أراه البستان وضوءه، وسأله عن ذلك في غيظ ودهشة . فانبهم الأمر على جعفر ، ولكنه سرعان ما أسعفه قريحته ، فقال :

لقد حدثني الشيخ إبراهيم منذ أسبوع أنه رغب أن يختن أولاده في ليلة فرحة مرحة بقصر الخليفة ، فقلت له : إن أمير المؤمنين يسره أن تفرح بأولادك على أي وجه تريد ؛ فإنه يحبك ، ويعطف عليك كما يحب أبناء أمته محبته لولده ، وسأعرض عليه أمرك ، ولكني نسيته . وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، ولعله الآن في القصر فرح بأولاده .

فقال الخليفة : أخطأت حينئذ خطأين : أما أولهما فإنك لم تعلمني ، وأما ثانيهما فلأنك يسرت للشيخ إبراهيم أمره دون أن تعرف غرضه فما عرض ذلك عليك إلا تلميحاً بطلب شيء من المال ينفعه ، فلا أنت أعطيته المال ، ولا أنت أخبرتني حتى أمده بما يكفيه .

فقال جعفر : متع الله أمير المؤمنين بيقظته ، وحدبه ، وما أوقعني في هذا إلا النسيان .

فقال : وحق عليّ أن أقضي معه البقية الباقية من ليلته ، فهو رجل طيب ذاكر ، وأصحابه من الطيبين الذاكرين ؛ الذين يقضون جزءاً كبيراً من وقتهم في صلاة وعبادة ، ولعلي أحظى منهم بالدعاء الخالص المستجاب ، فإنما يتقبل الله من المتقين .

فقال جعفر : إنهم الآن فى نهاية ليلتهم يا أمير المؤمنين ، وقد نجدهم منفضين .

فقال الخليفة : مهما يكن من الأمر فلا بد من أن أذهب إليهم .

وهبّ قائماً ، وسار وَمعه جعفر ، ومسرور سيافه ، متنكرين فى زىّ تجار من أهل تلك المدينة ، حتى كانوا بجوار القصر ، فقال الخليفة :

من الرأى أن أصعد فى هذه الشجرة العالية ، المطلة على شبابيك الإيوان ، فأراهم من حيث لا يرونى . وأقف على حالهم ، ثم نقرر ما نرى فى كيفية الدخول عليهم ، والانتظام فى سلكهم . فحاول جعفر أن يجعل الخليفة يكف عن الصعود على الشجرة ، ولكنه رأى منه إصراراً على أن يصعد ، فعرض عليه أن يصعد هو ويصف له ما يشاهد ، فأصرّ الخليفة على أنه هو الذى يصعد ، وخلع حذاءه وقباءه ، وصعد عَلَى الشجرة ، فماذا رأى ؟ !

رأى الخليفة نور الدين وجاريته ، وما كاد يقع بصره عليها حتى بهره جمالها ، كما حيَّره أن رأى الشيخ إبراهيم ممسكاً قدحاً من خمر فى يده ويقول : يا ربة الحسن الرائع ، لا شرب من غير طرب !

يا ربة الحسن والجمال ، املئى لى كأساً كبيرة ، وقدميها لى بيدك اللطيفة ، وغنينا صوتاً حلواً نشرب عليه ، فإن الخيل لا تشرب إلاّ بالصفير .



نزل الخليفة من فوره ، وقال لجعفر : اصعد مكانى من الشجرة ، وانظر كرامات الصالحين البررة .

فصعد جعفر ، ونظر ، فلم ير إلا ما رآه الخليفة ، ونزل مسرعاً فى حيرة من أمره .

ثم وقفوا يتسمعون، فإذا بهم يسمعون الجارية تقول للشيخ إبراهيم : لوكان عندك آلة طرب لتم سرورنا بما تسمعه من شجىّ الغناء .

فقال الخليفة لجعفر : لئن غنت ولم تحسن قتلتهم وقتلتك معهم ، وإن أحسنت الغناء قتلتك وعفوت عنهم .

فقال جعفر : اللهم لا تحسن غناءها .

فقال الخليفة : ولم ذاك ؟ !

فقال : حتى ننتقل معاً إلى الدار الآخرة فيؤنس بعضنا بعضاً .

فضحك الخليفة ، عَلَى الرغم من عجبه ودهشته ممـا رأى ، ومما سمع ، وانتظروا يستمعون .

أسرع الشيخ إبراهيم إلى غرفة قريبة ، وأحضر منها عوداً ، وقدمه للجارية . فتناولته ، وأخذت تعرك آذانه ، وتعبث بأوتاره عبثاً خفيفاً ، حتى استقامت لهـا ، ثم عزفت ، ورفعت صوتها واندفعت تغنى ، فى سكون الليل ، وهدوء الطبيعة شعراً يذوب رقة ، ويسيل عاطفة وحناناً ، يصوره صوت عذب رخيم ، فى نغم ندىّ جميل

فما كاد الخليفة يسمع صوتها وعزفها — حتى وقعت من قلبه موقعاً

عجيباً ، فإنه لم يملك أن تمايل تمايل الثمل ، وترنح كما تترنح الأغصان بمداعبة النسيم عَلَى نغمات الأطيـــار ، فلم يتمالك أن رفع صوته قائلاً : ما أحلى هذا الصوت وما أعذبه ! وما أجمل هذا الإيقاع وما أبدعه !

فقال جعفر: عسى أن يكون قد سُرِّى عن الخليفة ، وذهبَ غيظه !

فقال : وأحب أن أكون معهم ليطول استمتاعى بتلك الجارية .

فقال جعفر : أصبح الأمر يسيرًا .

(٤)

وكان قد مر بالبستان صياد يعرفه الخليفة يسمى كريمًا ، فلما وجد بابه مفتوحاً تسلل منه إلى مكان عَلَى نهر دجلة ، كان الخليفة قد حرَّم عَلَى الصيادين أن يأتوا إليه ؛ وما كاد يهيئ الشبكة لإلقائها فى البحر ؛ حتى كان الخليفة بجواره ؛ وذلك أنه سمع حركة ؛ فذهب إلى مصـدرها ليقف عَلَى أمرها قبل أن يصعد إلى الإيوان .

رأى الخليفة كريما الصياد فى هـــذا المـكان ؛ فقال له : ما جاء بك يا كريم إلى هذا المـكان وفى هذا الوقت ؟

فلم يكد كريم يسمع الصوت ، ويتبين صاحبه ، ويعرف أنه الخليفة حتى ارتعدت فرائصه وقال :

يا أمير المؤمنين ، لم يكن مجيئي هنا عصيانًا ولا خروجًا من طاعتك، ولكنه الفقر والعيلة .

فقال الخليفة : لا بأس عليك يا كريم ؛ ولكن هيّا ،ألق شبكتك ولنا ما تخرج ، قليلًا كان أو كثيرًا ، وخذ هذين الدينارين .

ألقى كَريم شبكته فى النهر ، ثم جذبها إليه ، وأخرجها ، فإذا بها جادت بسمك كثير مختلفة أشكاله، ففرح الخليفة بالسمك إلا أن تفكيره فى مجلس الأنس المنعقد فى قصره كان يملك عليه نفسه وشعوره ، وكان تفكيره فى أن يحضر هذا المجلس ، ويجلس مع الشيخ إبراهيم دون أن يعرفه . فقال للصياد :

اخلع ثيابك وعمامتك ، ثم لبسهما الخليفة ، وأعطاه بدلا منهما ثيابًا من الحرير .

وما لبس الخليفة ثوب الصياد حتى لسعته قملة فى قفاه ، فمد يده وتجسس مكانها ، حتى قبض عليها ، وألقاها عَلَى الأرض ؛ ثم قال :

إن ثوبك يا كريم به قمل كثير

فقال كريم :ستسكن إليه ياسيدى وتحتمل لسعه صابرًا بعد أسبوع .

فضحك الخليفة وأذن له أن ينصرف ، فمشى داعيًا شاكرا .

وضع الخليفة السمك فى قفة الصياد ، وحملها ، وذهب إلى جعفر متلثما متنكرا فى زى الصياد فلما رآه جعفر قال : ما جاء بك هنا يا كريم؟ أسرع وانج بنفسك قبل أن يراك الخليفة .

فضحك الخليفة ضحكة شديدة عالية استبان منها جعفر صوت الخليفة ونبراته .

فقال جعفر : لعلك مولانا أمير المؤمنين ؟ !

فقال الخليفة : ومادمت لم تعرفنى فى هذا الزى ، فإن الشيخ إبراهيم لا يعرفنى ؛ فالزم مكانك حتى أعود إليك .

فقال جعفر : سمعاً وطاعة ؛ ولكن أرجو أن يحتاط سيدى لنفسه ، ويصطحب معه مسروراً السياف فلعل فى الأمر شيئاً ، أو لعل هول المفاجأة يجعل واحداً من هؤلاء يفكر فى أمر خطير .

فضحك الخليفة وربت على كتف جعفر وداعب لحيته وطمأنه على نفسه ، وانحدر مسرعاً إلى باب القصر وطرقه ، فجاءه الشيخ إبراهيم قائلا : من بالباب .

فقال الصياد : أنا كريم جئتك بسمك كثير تكرم به ضيوفك .

وكان نور الدين وجاريته يحبان السمك ؛ فلما رأياه مع الصياد ، قالا : لو كان مقليا .

فقال الصياد : أنا مستعد يا سيدى أن أقليه ، وأعود من فورى ، ونزل به إلى جعفر ، وقال له : أرادوا السمك مقلياً ، فهيا بنا إلى خص الشيخ إبراهيم .

وهناك وجدا ما يحتاجان إليه من زيت ووقود وأوانى ؛ فأوقد جعفر النار وغسل الأوانى ، ونظف الخليفة السمك ، وقطعاه معاً ، وخلطا به

التوابل وقلياه . ثم حمله الخليفة على ورق الموز ، وأخذ معه ليمونا من البستان ، وصعد به إليهم . فأكلوا هنيئاً ، ومد نور الدين يده بثلاثة دنانير إلى الصياد قائلا : لو عرفتك قبل أن يصيبنى ما أصابنى لأغنيتك من فقرك ، ولكن الجود من الموجود ، فتقبلها الملك ، ووضعها فى جيبه داعياً له ، ثم قال له : لو تفضلت علىّ بسماع أغنية من هذه الجارية كنت لك خير شاكر ، وكنت أكرم متفضل . فلما سمعت الفتاة ذلك تناولت العود وغنت :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ولما رأى نور الدين أن الصياد طرب طرباً عظيما ، قال له : هل أعجبتك الجارية يا هذا ؟ !

فقال : إى وربى

فقال نور الدين : هى هبة منى لك ؛ هبة كريم لا يرجع .

ولكن الخليفة أدرك بحسه أن ألما فى نفسيهما يحاولان إخفاءه ، فقال : أحب أن أعرف شأنكما لو تكرمتما .

فقص عليه نور الدين تاريخه ، وما جرى له . فقال الخليفة : وأين تذهب الآن ؟

فقال : أرض الله واسعة .

فقال الخليفة : سأكتب ورقة تأخذها إلى السلطان محمد الزينى ،



فإذا قرأها كنت منه بمنزلة الأخ الذى يستمتع بنعمة أخيه وولائه .

فقال نور الدين : وكيف يكتب صياد إلى ملك فيستمع لقوله ، ويستجيب لإشارته .

فقال الخليفة : الأمر فوق ما تقول ؛ فقد كنا أخوين نتعلم فى مكتب واحد ؛ وكنتَ أنا عريفه ، ثم أسعده الحظ فكان ملكا ، وكبابى فكنت صيادا ؛ ولكنه لايزال يذكر عهد الأخوة ، فلا أكتب إليه فى حاجة إلا قضاها .

فقال نور الدين : اكتب وسننظر ما يكون ، فكتب الخليفة :

من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى محمد بن سليمان الزينى عامله على البصرة ؛ السلام عليك ورحمة الله .

أما بعد ؛ فإذا جاءك كتابى هذا فاعزل نفسك ، وليجلس حامله مكانك .

ثم سلَّمَ الكتاب إلى نور الدين ، فوضعه فى عمامته ، وذهب إلى البصرة .

ولما تسلم الزينى الكتاب قال : سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين . وأحضر القضاة والوزراء ومن بينهم الوزير المعين بن ساوى ، وأعلن أنه يريد أن يخلع نفسه نزولا على أمر الخليفة ، وناولهم الكتاب ؛ ولما وقع فى يد المعين بن ساوى مزقه ، وقال : كيف تخلع نفسك بورقة أحضرها غر أحمق مثل هذا الشاب — وأشار إلى نور الدين — إن هذا زور وبهتان ،

ولو كان من عند الخليفة لأرسل معه رسولا من عنده .

فقال الزينى : وماذا نفعل ؟

فقال الوزير أن تسلم لى هذا الشاب، لأرسله مع حاجبى إلى بغداد ، لنتبين الأمر .

فقال الزينى : خذه وافعل ما تشاء .

فسلمه الوزير إلى سجان يقال قطيط ، وأوصاه أن يصب عليه ألوان العذاب صبا ؛ فقال قطيط : سأجعله يطلب الموت من قسوة ما يحل به .

قال قطيط هذا أمام المعين بن ساوى، ولكن فضل نور الدين وأبيه لا يزال يغمره ، فلم تطاوعه نفسه أن يعذب نور الدين أو يقسو عليه ، ولكنه أكرمه ، وأحسن إليه على غير علم من الوزير أربعين يوما ؛ وفى اليوم الحادى والأربعين سأل الوالى الوزير عن نور الدين ، وعما تم فى مسألته ؛ فقال : لقد مضى أربعون يوماً ، والتجار بين البصرة وبغداد لا يزالون غادين رائحين ، ولم نسمع منهم شيئاً عما قرأناه فى ذلك الكتاب الذى كان يحمله ، ومن الرأى أن نقتله ، جزاء خيانته وكذبه .

فقال الوالى : أحضره ، ونفذ فيه حكم الإعدام ،

فأجابه الوزير : حتى نذيع بين الناس ذنبه ، وندعوهم يشهدون قتله .

فقال الوالى : افعل ما تشاء

وانتشر المنادون فى البصرة ينادون أن احضروا يوم كذا فى ساعة كذا إلى الميدان الكبير ، لتشهدوا قتل نور الدين ؛ جزاء اقترافه جريمة

التزوير فى كتاب أمير المؤمنين ، وإحضار كتاب مزيف ، يزعم فيه أن الخليفة عزل واليكم الأمير ، وعينه بدله .

ففزعوا لهذا النبأ ، وغرقوا فى حزن أليم ، ولم يؤلمهم أن نور الدين زوّر على الخليفة كتاباً ، لأنهم لم يصدقوا ذلك ؛ بل آلمهم ، وضايقهم ، أن يُقتل نور الدين ، وهو ابن وزيرهم الذى أحبهم وأحبوه ، وسهر على مصالحهم .

وفى الموعد المضروب هرع الناس إلى الميدان الكبير ، وكانوا بين باك وواجم ، داعين الله أن يسخر لهذا المظلوم من ينجيه من يد الظالم وبغيه . .

أما نور الدين فقد أسلم وجهه إلى الله، ودعاه أن يرد عنه كيد الكائدين، ويبين للناس فى أمره الحق من الباطل .

وبينما ينتظر الناس أمر الوالى بضرب عنقه ، إذ رأى من نافذة قصره غباراً كثيفاً يصعد فى السماء ، ويدنو من البصرة شيئاً فشيئاً ، فأمر أن يرجأ تنفيذ الحكم فى نور الدين حتى يستبين أمر هذا الغبار وكان هذا الإرجاء على غير هوى ولا رغبة من الوزير المعين بن ساوى .

كان هذا الغبار لجعفر البرمكى وزير الخليفة ومن معه من الجنود ، وذلك أن الخليفة مر على حجرة أنيس الجليس ليلة من الليالى ، فسمعها تبكى وتذكر أن خياله لا يفارقها فى نوم ولا فى يقظة ، وأن ذكره عَلَى لسانها ، لا تسكت عنه .

فدخل عليها مقصورتها ليسألها عن سبب بكائها ، فلما رأته وقفت محيية ، ثم أنشدت :

أيا من زكا أصلا وطاب ولادة وأثمر غصناً يانعاً وزكا جنسا
أذكرك الوعد الذى سمحت به محاسنك الحسنى وحاشاك أن تنسى

فقال الخليفة : من أنت ؟

فقالت : هدية نور الدين إليك ، وأرجو أن تنجز وعدك فترسلنى البصرة إليه؛ فقد مضى عَلَىَّ قرابة شهرين لم أذق فيهما النوم إلا غراراً، حسرة عَلَى فراقه ؛ فأمر أن يحضر إليه جعفر ، فلما جاءه قال : مضى زمن ونحن لم نعلم عن نور الدين ما تم فى شأنه ، ولعلهم قتلوه ، ورب الكعبة لئن كان قد قتله أحد لأقتلنه ، فسافر إلى البصرة وائتنى بخبره .

فلما حضر جعفر ، وجد زحمة وهرجاً ومرجاً أمام قصر الوالى ، فسأل عن سببها ، فأخبروه أمر نور الدين ، فأسرع إلى الوالى وأيد صدق كتاب نور الدين ؛ ثم عزله ، وولاه مكانه ، وأمر بالقبض عَلَى الوزير المعين بن ساوى .

تنفس الناس الصعداء ، واستراحت نفوسهم ، واطمأنت ضمائرهم ، وحمدوا لله نعماءه ، وللخليفة صنيعه وإحسانه ، وأشرقت وجوههم فرحاً وغبطة ؛ وبعد ثلاثة أيام ، سافر جعفر إلى بغداد ومعه الوالى المخلوع ، ووزيره المقبوض عليه ونور الدين بن الفضل ، وهناك قص عَلَى الخليفة القصة ، فأعطى نور الدين سيفاً ، وأمره أن نضرب عنق الوزير الآثم :

المعين بن ساوى ، فلما أقبل عليه ليحز رقبته ، قال له الوزير : كل منا يعمل على شاكلته ، وإنى ألجأ منك إلى طبعك الكريم ، فألقى السيف من يده معتذراً أنه لن يستطيع قتله بيده .

فأمر الخليفة مسروراً أن يضرب عنقه، فأطار رأسه فى التَّو عن جسمه. ثم التفت الخليفة إلى نور الدين سائلا عن حاجة يريدها فى نفسه ، فقال : ليس لى حاجة إلَّا أن أسعد بجوارك ، وأبقى فى كنفك ، فقال : لكَ ذلك ، وأسكنه وجاريته قصراً من قصوره، وأَجرى عليهما نعمهُ السابغة، حتى وافاهما الأجل المحتوم .

وكذلك يجزى الله الظالمين ، ويدافع عن المؤمنين المخلصين .



الأحدب والخياط

(١)

كان فى مدينة البصرة خياط غنىٌّ، اعتاد أن يخرجَ بزوجه إلى المتنزَّهات ، لاجْتلاءِ مباهِجِ الطبيعة .

وذاتَ يومٍ وهما راجعان من نُزهةٍ خلويَّةٍ ، رأيا فى طريقهما رجُلًا أحْدب ، شكلُه يُضحك الحْزين ، فأخذاه إلى منزلهما ، ليكون ضُحكةً لهما تلك الليلةَ القادمة ، وكانت الزوجةُ قد أعدَّت سمكاً وليمونًا وخُبزاً ، لتناوُلِهِ وقتَ العشاء .

فلما جلسوا حوْل المائدة يأكلون ، ناولَتِ الزوجةُ الأحدبَ قطعةً

من السمك ، وأقسمت عليه أن يبتلِعَها ، دون أن يمضغها ، وكان فيها شوكة صلبةٌ على غَيْرِ عِلْمٍ منها ، فوَقفت فى حلقِهِ ، وغُصَّ بها غُصةً حادَّةً ، وكانت سبب وفاته .

فَحَزِن الخياط وقال :

حظُّنا الليلة عابسٌ أسْود ، وكَيف نخلصُ من هذه الوَرْطة ؟ !

فقالت زَوجُه : مالكَ قد اضطربتَ ، والمسألة فى غايةِ السّهولةِ ؟!
قُم واحْمِله على كتِفِك ، كأنه ابنُك ، وأنا سائرة من ورائك ، واذهب به إلى الطبيب اليهودى فى شارع البحر ، وهُناك ننتظِر الفرج ، فإمَّا عالجهُ وإمَّا خلَّصَنا منه بأية وسيلة .

ولمـا طَرق باب الطبيب نزلتْ إليه جاريةٌ سوداء ، وفتحت الباب وقالت : ماذا تريدون ؟

فناوَلتْ زوجة الخياط الجارية رُبع دينار وقالتْ :

وَلَدِى الصغير مريض ، فبلِّغِى الطبيب أن ينزل لفحصه ، وعملِ الدواء اللازم له .

فصعدت الجارية لتُبلِّغ الطبيبَ الخبر .

وفى أثناء ذلك أمَرَت الزوجة الخياط أن يترك الأحدبَ داخلَ الدَّار ، ويَرجِعا مُسرعَيْن ، ففعَلَ الخياط ما أشارت بِهِ ، وعادا إلى منزلهما سالمِيَن . . .



فرِح اليهوديُّ برُبع الدينـار ، ونزل مُسرعاً إلى المريض ، دون أن يأخذ معه مِصباحاً يُنير له الطريق ، وأمرَ جاريتهُ أن تلحقه بمصباح ، فداسَ المريض بقدمه ، ولما تبيَّنَهُ على ضوء مصباحه وجده قد مات، فأصابه غمٌّ عظيم ، وحملَهُ إلى زوجتهِ ، ليُطلعها على خبره ، وتُشير عليه بما يَفعله ، فقالت :

إن سكتْنا إلى الصَّباح ضاعت أرواحُنا بسببه ، وجارُنا رجُل مسلم ، مباشرُ مطبخ السلطان ، وسطحُ منزله مأوًى لكثيرٍ من القِطط والكلاب فإذا ألقيناهُ على سطح منزله فقد لا تمضى ليلتان أو ثلاث ، حتى تكون الكلابُ والقِطط قد أكلتْه .

ففَرِح اليهوديُّ بهذه الحيلة ، وألقياه على سطح المنزل ، وتخلَّصَا من هذا القتيل ، وفاز اليهوديُّ بربع الدينار .

واتفق أن جاء المباشر فى ذلك الوقتِ وأخذ شمعةً مُضيئةً فى يده ، وصعد بها إلى سطح منزله ، لشأنٍ من شئونه ، فوَجد الأحدب نائماً ، فظنَّهُ لصا اعتادَ أن يسرق دُهنه ولحمه ، فوَكَزَهُ بعصاً فى يدهِ ، ولما لم يتحرَّك أقبل عليه يُقلِّبُهُ ، فوجده قد فارق الحياة ، فظنّ أن موته بسبب ضربته فقال :

لا حَوْل ولا قوة إلا بالله ، سَترك الجميل يا ربى ، ثم حملَهُ وطرحهُ بجوار حائطٍ فى الشارع العام ورجع إلى منزله .

وخرجَ من بيته فى ذلك الوقت نصرانىٌّ يقصِدُ الحمَّام ، وكان

السُّكر لا يزالُ قويًّا في رأسِه ، ولما وقَع نظرُه على الأحدبِ ، توهَّمَ أنه متربِّصٌ لإيذائِه ، وخطفِ عمامتِه ، على نحوِ ما يَفعل الصبيانُ به ، فأقبل عليه وجَعل يضربُه ويَضربُه ، ويُنادِى حارسَ سُوقِ المدينةِ كأنهُ يستغيث به ، فلمّا حضَر وجدَه باركاً فوقَه ، يَضربُه تارةً ، ويخنقه تارة أخرى ، ولحظَ الحارسُ أنّ الأحدب لاَ يتحركُ فنحَّى عنه النصرانيّ ، وقلّبَ الأحدابَ فوجدَه ميتاً ، فأمره أنْ يحْمله إلى بيتِ الوَالى ، حَيثُ يَلقَى جزاءه .

وفى الصباح نظر الوالى قضية الأَحدب ، وحكمَ على النّصرانىّ بالإعدام شنْقاً ، بحيثُ يكون تنفيذهُ على مَشهدٍ من الناس . وقبل أَنْ يُطوّق عنقُه بالحبْل لشنقه ، سُمِعَ صَوتُ قادمٍ يشُقّ جَمعَ الناس ويقول :

لا تقتلوه ، وإذَا به المباشِر ، ولمّا وقَف أمام الوالى قصَّ عليه قِصّته ، فحكم عليه بالقتْلِ لاعترافه ولكنه لم يُقتل ، لأنّ اليَهودىّ حضَر إلى الوالى واعْترف بأنه القاتل ، فانتقل الحكم بالقتلِ من المباشِرِ إليه ، وما كادَ رجالُ الوالى يشرعون فى تنفيذ حكم الإعدام حتى جاءَ الخياطُ ، فنفى جَريمةَ قتلِ الأَحدبِ عن اليَهودىّ ، ونَسبَها إلى نفسِه ، فأَصبحَ المسئُولَ الأخير ، الذى ينفّذُ فيه حكم الإعْدام .

وكانَ الأحدبُ نديمَ الملكِ ، ولمّا غابَ عن مجلسه سألَ عنْه فقيلَ إنه مات ، وتُليتْ عليه قصتُه ، وكان الخيّاطُ لا يزالُ حيًّا لم يُقتل ، فأَمر الملكُ فى الحالِ أنْ يُؤَجّلَ القصاصُ حتى يَنظُر هو نفسُه القضيّة ، فنقلَ

الأحدبُ إليهِ ، وسيق الخياطُ واليَهودىُّ والمباشر والنّصرانىُّ إلى مجلسه ، وحكَى كلٌّ منْهم ما حَصلَ منه ، فالتفتَ الملكُ إلى الحاضرين وقال :

هل سَمِعتم شيئًا عَجيبًا كهذا ؟ ! ! فقال النصرانىّ : إنْ أذِنَ لى الملكُ حكيْتُ أعجبَ من هذا الحديثِ ، فأذن له ، فقال :

أنا قِبطىّ ، ولدتُ بمصرَ ، ونشأت فيها ، وكان والدى وَسيطًا « سمساراً » فلما تُوُفّى كُنتُ وَسيطاً بدَله .

وذات يَومٍ جاءنى شابٌّ راكبٌ حِماراً ، وهو أحْسنُ ما يكونُ خَلْقا ، وأَفْخر ثيابا ، فأعْطانِى منديلا فيه مِقْدارٌ من السّمْسم ، وسألنِى عنْ ثَمن الإردب منه ، فقلت: ثمن الإردب من هذا السمسم مِائَة دِرْهم ،فقالَ :

بعتُ بهذا الثّمن ، فإذا جاءَ الغَدُ فائتِنى ومَعكَ الكيّالون ، فى الخان الُجوّانى بباب النَّصر ، وترَكَ معى المنديلَ وما فيه ، لأَعْرِضَه على التجّار ، فبلغَ ثمن الإردَبّ مِائةً وعشرين درهما .

ولما جاءَ الغَدُ ذهبْتُ أنا والتاجِرُ والكيّالون إلى هذا الشابّ فى المكانِ المُعيَّن ، واشْترَينا جَميعَ مافى مَخزَنه ، وكان خَمسين إردَبا ، ثم قال الشاب لى : احْفظ ثمن السمسم عندَكَ أمانةً لى ، ولكَ على كُلّ إردب عشْرةُ دراهم ، فبلَغ ربْحى من تلك الصفْقَةِ ألْفَ درهمٍ وخمسمائة ، ثمّ ودعتُه وانصرفْتُ مَسْرورا .

وكان الشابُّ يأتينى كلَّ شهرٍ ، فأَعرضُ عليه ثمن السمسم ليأْخُذَه ، فلا يرضَى ويقول : احفظْهُ لِى أَمانةً عِندَكَ . وفى زيارته الرابعةِ لى

أَقسمتُ عليه ألاّ يُفارقنى ، حتّى يتناولَ الغَداءَ معى ، فقال :

علَى أنْ يكون ثمن غَدائنا مما عندَكَ لِى من النّقُود ، فقلتُ : ذلك لَك ، ولَمَّا حضَر الطعام وجدتُه يأكُلُ بيدِه اليُسْرى ، فانتظرتُ حتى أكلنا وشَرِبْنا ، ثم سألتُه :

لأىّ شىءٍ أكلتَ بيدكَ اليُسرَى ، فأَخْرجَ لِى يدَه اليُمْنَى من كُمّهِ ، فإذا هِىَ مقْطوعةُ الكَفّ ، فقلتُ هَلْ ذلكَ من سَببٍ ؟ فقالَ : نَعمْ ، وسأقُصهُ عَليْكَ .

قال الشاب : إنّ والدى من أكابر بَغْداد ، وقَدْ نَشأْتُ فيها نشأةً كريمة ، وعرفْتُ كثيرا مِنْ مزايا مِصْرَ ، لِكثْرة ما كُنتُ أسْمعُه من التجار ، فأحبَبْتُ السفرَ إليها ، ولما توُفّىَ والدى جمعتُ كثيراً من أصْناف المنسُوجاتِ البَغدادية والموْصليّة ، وغَيرها من البَضائع النفيسة ، وسافرْتُ بها إلى القاهرة ، وأَنزَلْتُ بضاعتى هذه فى خان سرور ، وبعد ليلةٍ من قُدومِى ، أخذتُ بعضاً من بضاعتى إلى قِيسرية جرجس ، فلمْ يبْلغْ ثمنها رأسَ مالها . فأشارَ علىّ شيخ الوُسطاء « السماسرة » أَن أُريحَ نفْسى ، وأَبيع بِضاعتى جميعَها إلى التجّار ، على أن أخُذَ ثمن ما يباع منها على دفعاتٍ ، موعدُها يومُ الاثنين ويوم الخميس من كُلّ أُسبوع ، وبذلك أَستفيدُ رَاحتى وأَتمكن من التنقّلِ فى القاهرة ، لمشاهدةِ مَبانيها وآثارها ومظاهِرِ حضارتها ، وأكسبُ من جرّاء ذلك رِبْحًا عظيما ، على نحو ما يفعلُه التجارُ الذين يأتونَ مِصرَ من الأقاليم الأخرى ، فنفّذتُ إشارته ،

وجعلتُ أَذهبُ إلى دكاكين التجارِ فى هذين اليومين ، لآخذَ منهم ما جمعوه من ثمن بضاعتى .

وجلستُ مرة فى دكان بَدر الدين البستانى ، فجاءتْ فتاةٌ جميلةٌ ، وطلبتْ مِنه بعضَ الملابس الحريرية ، المطرَّزَة بالذهب ، واختارتْ منها ما أَعجبَ ذَوقَها لَوْناً وجوْدة ، وقالت للتاجر :

سآخذُ هذه الملابس وأرسلُ إليكَ ثمنَهــــا مع جاريَتى حسبَ عادَتى ، فقال :

لا بُدّ من دَفع الثمن فَوراً ، لأنى مُضطر إلى ثمنها اليومَ ، لأُعطىَ صاحبَها هذا — وأَشارَ إلىَّ — ما عَلَىَّ له من أقساطٍ ، فغَضِبَتْ ورمَت البِضاعةَ من يدها وقالت :

هذه عادتُكم يا تُجار ، لاَ تفرّقون بين الزبائن ، ولا تحافِظون على أَقدار الأشراف مِنهم . ثم قامت

فأحببْتُ أَن أتعرف مكانتَها من الشرفِ الذى تدّعيه ، وعرضتُ عليْها الجلوسَ فجلسْتَ ، وأعطيتُها البضاعة التى اختارتها قائلا :

خُذى البضاعةَ وأرسلى ثمنَها متى شِئْتِ ، فشكرتْ لى هذا الجميل ، وأخذَتها وانصرفتْ ، ثم سألت التاجرَ بدْرَ الدين عنها بَعدَ انصرفِها فقال :

هذه بنتُ أميرٍ ، ماتَ والدُها ، وتركَ لها أموالا كثيرة ، فرغبتُ فى زواجها ، بعد الاطمئنانِ على أخلاقِها وحسْنِ سُلوكها ، ومِقْدار تديُّنها .

وجلسْتُ ثانىَ يوم فى هذ الدُّكان مُنتظراً ما سيكون ، فجاءت الفتاةُ

ومعها جاريتُها ، وسلَّمتْ علينا وأعطتنى ثمن البضاعة التى اشترَتها بالأمسِ ، وحاوَلتُ أن أتركَ لها الثمن هديةً فلم تقبلْ وقالت :

لا ينبغى أن تقبلَ صبيةٌ مثلى من شابٍ مثلكَ هديّةً قد تكون سبباً فى أن يتحدثَ الناسُ عنا بما نكره . فقلت لها :

رُبما جعلتُها سبباً لغرضٍ شَريف كالزواج مثلا ، فقالت : إن الزواجَ الذى يشترى بالهدايا حياته قصيرة ، وخاتمته فُرقةٌ بَغيضة ، وفى استطاعتى أن أشترىَ بمالى أوْ جَمالى أزواجاً كثيرين ، لا زَوجاً واحداً ، ولكنَّ المرأةَ الصالحة دينٌ وخلُق ، فزادَنى هذا الحديثُ تشبثًا بالزواج مِنها وقلتُ :

ولقد رغبْتُ الآن فى زَواجكِ ، فماذا تقولين ؟ فقالت : لقد درسْتُك وخطبتُكَ لنفسى قبلَ أن تدرسَنِى وتخطبَنِى لنفسك ، وأرجو من الله أن يَجعلَه لنا خَيراً وبركة ، فسألتُها عن بَيتها فقالتْ : فى دَرب المنقرى بالحبّانيّة ، فإن شئت فأَحضِر مَعكَ المأذون والشُّهود ، ومَن تشاء من مَعارفك وأصحابك ، ومَوعدُك ليلةُ الجمعة القادمة . فاتفقْنا على هذا وسلّمتْ وانصرفتْ .

وعِشناَ زوْجين متحابين أكثر من ثلاث سنواتٍ ، وبينما أنا سائرٌ فى شارع من شوارعِ القاهرة ، رأيتُ جمعاً من النـاس فى ضَوْضاء ، ومن حول شابٌ محكومٍ عليه بقطع يده ، لأنه سرق أسورة من سيدة وأدهشنِى أنَّ هذا الشاب السارق يُشبهنى فى صورته ، وأنى رأيت بعينى سيدة فى هذا الجمع سرقَتْ من أُخرى أسْورَة ، وكنت أَستطيعُ أن أُنبّه

المسروقة ، فأُرشد إلى السارقة ، ولكنى لم أَنطق بكلمة واحدة ، وبعد لحظة وجدتُ جمعَ الناس هذا يجرى فى ناحيــــة ، فجريت معه محاكاة له ، وإذا بجندى يقبض على يدى ويصيح : قد وجدته ، فوقف الجمع ، والتفّ بقية الجند حولى ، وساقونى إلى حيثُ تُقطع يدى ، بدلًا من الشابّ السـارقِ الهاربِ ، الذى صورته تُشبه صورتى ولـكنهم لا يعلمون ، وأَعتقد أنى لو نبهتُ إلى سرقة الأسورة ، ما وقعتُ فى هذه المصيبة ، وتلك حادثة قُطع يدى . فقال الملك : لا يزال الموت قريباً منكم ، فقال المبـاشر : أيأذن لى الملك أن أَحكِىَ حادثةً غريبة ، فإن أعجبتك عفوت عنا ؟ فقال : أَسمعنا تلك الحادثة الغريبة . فقال المباشر :

حضرت وليمة لبعض أَصحابى ، وكان على السِّماط كثير من أصناف الطعام ، ومنها طعام الزِّرباجة ، وكانت لذيذة الطعم ، فأَكلنا جميعنا منها إلَّا واحداً ، فإنه امتنع عن أكلها وقال : سأَقص عليكم سبب امتناعى ، وشرع يقول :

كان لزبيدة زوج هارون الرشيد جارية تُحبها ، وشاء الله أن أتزوجها ، وفى ليلة الدخول بها أَكلت زرباجة ، ونسيت أن أغسل يدىّ منها ، فلما شمتْ رائحتها صرخت صرخة عاليةً ، فحضرت جواريها سائلاتٍ قائلاتٍ : ماذا جرى يا سيدتنا ؟

فقالت : هذا الشاب الأحمق أَكل زرباجة ولم يغسل يده . فاذهبوا به إلى سيّاف القصر ليقتُله .

فقالت كبيرةُ الجوارى وكانت عاقلة معروفة بِحُسن التدبير: لقد حرَّم الله قتل النفس إلا بالحق. فقالت اقطعْنَ يده.

فقالت كبيرة الجوارى: ولا تقطع يدٌ إلَّا فى قصاص أو سرقة: فقالت اقطعن إبهام يده، وإلَّا قتلت نفسى، فذهبْنَ بى إلى السياف وقطع إبهام يدى اليمنى، بسبب الزرباجة، فأقسمتُ بعد ذلك ألَّا أذوقها مادُمتُ حيًّا.

فقال الملك لا أجد عفوى عنكم قريباً منكم. فقال اليهودىّ: عندى حكاية أغرب وأعجب. فقال: هات ما عندك.

فقال اليهودىّ: كنت يوماً فى الكنيسة، فوجدت شابًّا يبكى بكاء مُرًّا، فأقبلت عليه، وسألته عن سبب بُكائه فقال:

تزوجت بنت غَنىّ من الأغنياء، وعشتُ معها فى نَعيم ورخاء، حتى رُزقْتُ منها بولد جميل، وكان لها زوجةُ أب عَقيم فغارت منها وأخذت الولد وادَّعَت أنه ابنُها بحيلة غريبة. فقلت وما تلك الحيلة؟ فقال: حينما ظهر الحمل فى زوجى ادعتْ زوجة أبيها أنها حاملٌ أيضاً، واعتكفتْ فى بيتها حتى لا يفتضحَ أمرُها، واتفقت هى وبعض جواريها أن يكون وضعها ليلة وضع زوجى، على أن يسرِقْن ما تلِدُه زوجى إليها، لتدَّعيه لنفسها، وذلك حرصاً منها على ثروة زوجها، حتى تفوز بأكبر نصيب منها، وقد نفَّذتْ ما دبَّرت، وفقدت ولدى، ولم يبق لى ولزوجى إلَّا الحْزن والبكاء، فقلت: وكيف عرفتَ ذلك؟

فقال: من جواريها جاريَةٌ متدينة، كبُر عليها أن تسكت عن هذه

الخطيئة ، فأخبرتني بها بعد أن عاهدتُها ألّا أبوح باسمها، ولستُ واجداً من يساعدنى فى إرجاع الولد إلى أبيه وأمه ، فقلت له إن الله لا يدع الظالم فى ظلمه، وهو إن أمهله فلن يُهمله ، حتى إذا أخذه لم يُفلته . فقال الملك لا يزال الغيظ منكم يملأ صدرى

فقال الخياط : سأسمع الملك أعجب شىء سمعه ، إن أذِن لى بذلك ، فقال : قل ما شئت ، فإن أعجبنى عفوت عنكم . فقال :

كنت فى وليمة عند أحد أصحابى ، فدخل علينا صاحب الدار ومعه شابٌ جميلٌ أعرج ، فاستعدّ جميعنا لحسن استقباله ، إشفاقاً على عرجه ، ولكنه عاجلنا بقوله : استريحوا فإنى خارجٌ ، ولن أجلس معكم، ولن أُقيمَ فى مدينتكم ، فأحببنا أن نقف على حاله ، ونعرف سبب نفوره وغضبه ، وأقسمنا عليه أن يجلس ويحكي لنا حكايته .

فقال : كرهت الجلوس معكم ، والمقام فى مدينتكم بسبب هذا المزين — وأشار إليه — وقد عاهدت نفسى ألّا يجمعنى به مكان أو مدينة فزادنا هذا القول حبًّا فى معرفة الحقيقة ، وأقسمنا عليه أن يحدثنا بها ، فجلس وقال :

نشأت فى بغداد، وورثت فيها عن المرحوم أبى مالاً كثيراً . انصرفتُ إلى تنميته بالتجارة ، والاستمتاع به فى غير إسراف ولا تكبّر ، ولم أُفكر فى الزواج ، لأنى لم أجد عندى ميلًا إلى النساء ، وكانت كراهيتى لهن غالبة وبينما كنت فى زقاقٍ من أزقةِ بغداد ، لقضاء بعض مصالحى ، أطلّتْ

من نافذة بيت فيه صبيّةٌ ، لم تقع عيني على أجملَ منها. فأطلْت النظر إليها وتمنيت دوامها مطلةً من النافذه ، ولكنها أقفلتْها واختفتْ ، فرجعت إلى بيتى وأنا مشغولٌ بها وأحْببت أن تكون لى زوْجًا ، وإن أنفقت فى سبيلها ثروتى ، وكانت تتردَّد على بيتى جارةٌ لى عجوز ، فأخبرتُها أن فى البيت الفُلانى صبيّةً أُحب أن أتزوجها ، وسأُعطى من يُساعدنى فى ذلك ما يطمع من مال ، فقالت : هذه بنت قاضى بغداد . وإنى أزورها كثيراً وسيكونُ زواجُك منها على يدى ، فشكرتها ووعدتها أن أهدىَ إليها مكافأةً قيمة ، وبعد أيامٍ ثلاثة ، جاءتنى العجوزُ بكلّ خير وقالتُ : زرت الصبية اليوم وأخبرتها أنى أعرِف شابًّا متدينًا غنيًّا ، أخلاقه أحلى من الشهد وصورته أجمل من البدر ، ليس له إخوةٌ ولا أخوات ، وأُبوه وأُمه قد انتقلا إلى رحمة الله ، وليس فى بيته ما يَغيظ الزوجة ، فيا سعادةَ من تكون من نصيبه . ويا هناءةَ من تكون زوجته ، فابتسمتْ وقالت : أنتُن يا معشر العجائز ساحرات ، فقلت : ورب الكعبة يا بنتى لا أقول إلّا حقًّا ، وأَرجُو من الله أن يجملك من نصيبه ، حتى تعرفى إذا كنت صادقةً أو كاذبة . فقالت : إذا أمكنَكِ فأَحضريه هنا لأعرف مبلغَ كلامِك من الصدق ، فقلت لها على العين والرأس ، ومتى أُحضره ؟

فقالت : إن أبى يخرُجُ قبل صلاة الجمعة لزيارة مقابر أَولياء الله ، وبعد أن يصلِّىَ الجمعةَ يعود إلى بيته ، وأستحسن أن يكون حضوره فى وقتِ غيبة والدى من ذلك اليوم ، حتى لا يشعُر به أَحد ، فربَّما كانت حالته على

غير ما وصفت . فقلت : انتظريه فى هذا الموعد ، وستكونينَ مسرورة ولى عندكِ مكافأة عظيمة . فقالت لى : علىَّ إن كنتِ صادقة .

وفى يوم الجمعة الموعود أمرتُ غلامى أن يحضرَ لى من السوق مُزيِّناً عاقلاً ، قليلَ الكلام ، لأحلِقَ رأسى قبلَ أن أذهبَ إليها ، فجاءنى بهذا المزين الجالس بينكم — وأشار إليه — وقال : السلام عليكم ، فقلتُ : وعليكم السلامُ ورحمةُ الله ، فقال : أذهبَ اللهُ عنكَ الهمومَ والأحزان ، فقلت : تقبّلَ الله دعوتَك لى ولك وللمسلمين .

فقال : أبشِرْ بالعافية ، أتريدُ حَلْقاً أم تقصيراً أم حِجامة ؟

فقد قالت العلماء : من قصّرَ يوم الجُمعة صرَف اللهُ عنه سبعين داء ، ومن احتجمَ يوم الجمعة سَلِم بَصرُه وعُوفىَ من المرض ، فقلت : اتْرُكْ فضولَ القوْل ، واحلِقْ رأسى ، لأخرج إلى عملى ، ففتَح منديلا معه ، وأخرجَ منه « إصْطِرْلابا » ومَضى به إلى صَحْن الدار ، ونظر إلى أشعةِ الشمس قليلا .

ثم قال : مَضى من يوم الجمعة هذا ، وهو العاشرُ من شهر صفر سنة ثلاثٍ وستينٍ وسَبعمائة من الهجرة — ساعتان ، وطالعُه المريخ ، ويدلّ على أن حَلْق الشَّعر حَسَن ، وأنك مقْبِلٌ على شخص سعيدٍ ، ولكنْ يَقعُ بعد قدُومك إليه شىءٌ لا يرضيك .

فقلت : حجَلْتَ فيها باغراب ! ! لا تُقلقْنا بكثرةِ الكلام ، فما أحضرتك إلّا لتحلِق رأسى .

فقال لو أردتَ الخير لطلبتَ منى المزيد ، وأُشيرُ عليك — كما يدلُّ طالعك — ألّا تخالفني فى هذا اليوم ، فإنى ناصحٌ وأحبُّ أن أخدمك سنة كاملة

فقلت : إنك قاتلى اليومَ بكثرة لغْوك وباردِ فُضُولك ، فقال : لست كثير الكلام ، وإن الناس يسمّونى الصامت لقلة كلامى ، من دُون إخوتى ، وأخى الكبير يسمى البقبوق ، والثانى الهدار ، والثالث بقبق ، والرابع الكور الأصوانى ، والخامس الفشار ، والسادس الشقالق ، وسابع إخوتى الصامت ، وهو خادمك ، الذى يُحدثك ، فنفِد صبْرى ، وناديتُ غلامى ، وأمرته أن يعطيه رُبع دينارٍ على سبيل الإحسان ، ويُخرجه سريعاً ، فلا حاجةَ بى إلى حَلقِ رأسى .

فقال المزين : أما تعرفُ منزلتى ؟ إن يَدى توضَعُ على رُءوس الملوكِ والأُمراء ، فقلت : لقد أتعبتنى وضيّعت وقتى . فقال : أظنك تريد الخروج سريعاً ، فقلت : نعم .

فقال : تمهّلْ ولا تعجَلْ ، فإن العَجلة ، تورث الندامة ، وقد قيل : خيرُ الأمور ما كان فيه التأنّى ، وإنّى الآن أخاف عليك أن يصيبك ضُرٌّ أو أذى ، وأحبُّ أن تطلعنى على أمرِك ، فربما خرجْتَ إلى شىءٍ يضُرك ، ثم أخذ « الاصطرلاب » وذهب إلى الشمس ، فوقف به مدة طويلة ، ثم عاد به . وقال : لم يبق على صلاةِ الجمعة إلا ثلاثُ ساعات .

فقلت له : إنك أمرضتنى بكثرة كلامك ، فأمْسَكَ الموسى ، وحلق بعض رأسى .

وقال : إنى فى همٍّ شديد لهذه العجلة ، وإن أنت أطلعتَنى على حاجتك التى تريد الخروج إليها كان خيراً لك ، فإنّ المرحومَ والدك ما كان يفعلُ شيئاً إلا بعد مشورتى ، فلما أيقنتُ ألا مَخلص لى منه قلت : دعانى أحدُ أصحابى إليه ، وقد جاء موعدُ الدعوة

فقال يومك مبارك ، جاءنى فى البارحة جماعةٌ من أَصحابى ، وقد نسيتُ أَن أجهِّز لهم شيئاً يأكلونه اليوم ، وقد ذكَّرتَنى بهم الآن ، فقلت : لا يهمك أمرُ إخوانك ، فعندى طعامُهم وشرابُهم ، إن أنتَ أنجزت حلق رأسى .

فقال : زادك الله خيراً ونعمة ، فصف لى ماعندك حتى أعرفه ، فقلت : عندى خمسةُ أَلوانٍ من الطعام ، وعشر دجاجات ، وخروف مشوىّ ، فقال : أحضرها أَمامى حتى أراها ، فأمرتُ الغلام فأحضرها ، فقال : وأين الطيب ، فأمرت الغلامَ فأحضر عوداً وعنبراً ومسكا ، ثم أمسك الموسى وحلق جزءاً آخر من رأسى .

وقال : أشكر لك فضلَك ، ولكنّ أَصحابى لا يستحقون هذا الطعام لأنهم زينون الحمامى ، وصليع الفسخانى ، وعوكل الفوال ، وعكرشة البقال ، وخميس الزبال ، وعكارش اللبان ، فقلت : أنْجِزْ حلق رأسى ، واذهب إلى أصحابِك ، واتركْنى إلى أصحابى .

فقال : أحبُّ أن أجمعك بأصحابى ، لأن حضرتهم لذيذة ، ولو اجتمعتَ بهم مرة واحدة لنسيت من أجلهم جميع أصحابك، فقلت : سأجعلُ لهم يوماً كاملا فى دارى هذه ، فقال : إذا كنت مُصرًّا على أن تذهب إلى أصحابكَ فانتظرنى هُنا حتى أعطى أصحابى هذا الطعام يأكلونه ، وأنا أذهب معك إلى أصحابك، فقلت :اذهب أنت إلى أَصحابك، ودعنى أذهب إلى أَصحابى .

فقال : لا أتركك تذهب وحدك ، فقلت : إن المكان الذى أَقصدُه لا يدخله أحد مَعى . فقال : لعلك ذاهبٌ إلى امرأةٍ أو صبية ، ولو كان الأمرُ غير ذلك لأخذتَنِي معك . فقلت له : ماهذا الكلام ؟ إنك رجلٌ تظنُّ بالناس الظُّنون — وكان قد جاء وقتُ الصلاة وانتهى من حلق رأسى — اذهب إلى أَصحابك، وأعطهم هذا الطعام ، ثم ارجع وأنا فى انتظارك ، لتذهب معى إلى أَصحابى .

فقال : إنك تخادعنى ، لتذهب أنت وحدك ، فبالله لاتخرجْ من دارك حتى أَعود إليك ، وأَمضى معك إلى حيث تريد ، فقلت : على شريطة أن تعود سريعاً ، ولا تبطئْ ، فقال : سأعودُ إليك فى لمح البَصَر ، ثم كلَّف الحمال أَن يمضى بالطعام إلى بيته ، واختبأ هو فى زقاقٍ ، ليتبعنى حيث أَسير على غير علم منى .

خرجتُ من البيت ، وجعلت أسير ، والمزين من ورائى ، وأنا معتقد

أنه فارقني ، حتى دخلت بيت الصبية ، وكان أبوها القاضي قد انتهى من صلاة الجمعة ، فدخل البيت على أثري .

وفوجئت الصبية بهذه الحال ، فاضطربت ولم تجد وسيلة تُنجيها إلا إخفائي في صندوق كان عندها ، وشاء القدر أن تذْنِبَ جارية القاضي ، وعبد من عبيده ، فضربهما ضربًا مُوجِعًا ، وصاحا مُستغيثين ، فظنَّ المزين أنه يضربني ، فجعل يصيح في الزقاق قائلا :

قُتِلَ سيّدي في بيت القاضي .

فاجتمع الناس أمام البيت ، مُحدِثين ضوضاء وجَلَبَة ، جعلت القاضي يُسرع إلى الباب ففتَحه ، وخرج إلى الناس يسألهم عن سبب اجتماعهم أمام بيته ، فقيل له :

لقد قتلتَ رجُلًا في بيتك . فقال :

ليس في بيتي رجلٌ غريب ، وليس من أهل البيت من أذنب حتى أقتله ، فقال المزين :

إن بنتك تعشق سيدي ، وقد وصل إليها الساعة ، فأمرت غِلْمانك بقَتله فقتلوه ، وإن كنت كذّبتني فدعني أدخل البيت وأخرجه ، أمام هؤلاء الناس ، فقال القاضي :

إن كنت صادقًا فادخل البيت وآخرج سيدك .

فدَخلَ المزين وقصدَ المكان الذي فيه الصندوق ، فلمَّا لمْ يجدْني حَملَ الصندوق الذي اختبأت فيه ومضى به ، فلمْ أَجدْ مَفرًّا من الخروجِ

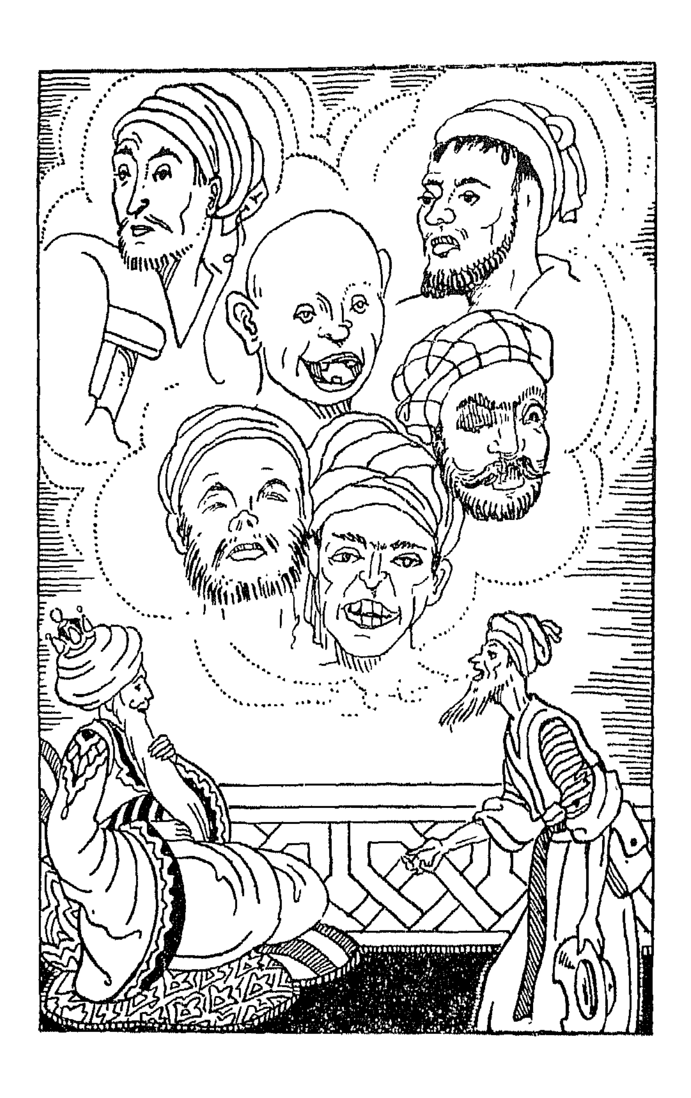
منه ، فوثبتُ مُلْقِيًا بنفسى على الأرض فكُسِرتْ رِجْلى ، ثم مشَيْتُ بها كالأعْرج إلى الباب فى أَلَمَ شديد ، وكانَ مَعِى صُرةٌ من الدّنانير ، فجعلتُ أُلقِى مِنْها هُنا وهُناك ، فَشُغِلَ الناسُ عنى بجمع الدنانير ، حتّى انْسللتُ من بينهم ، ومشَيتُ إلى دَارِى ، كلّ أولئكَ والمزين يتبعُنى ويقول : لقدْ منّ اللهُ عليكَ بمُصاحَبَتى ، ولولاَها لكنتَ الآنَ من الهالكين ، فاستجرْتُ مِنْه بِصاحبِ دُكان فى سُوقِ المدينةِ فطَرَدَه ، وحالَ بينه وبينى ، وعزَمتُ ألّا أُقيمَ فى مدينةٍ يقيم فيها هذا المزين ، ووصيْتُ بمالى أحدَ أقاربى ، وسافرتُ إلى مِصر ، وأقمت فيها مدة .

ولما دُعيتُ اليومَ إلى مجْلسِكُم وجدْت فيه هذا المزين ، فحاولتُ الفِرارَ من وجْهه ، فالتفت الجالسون إلى المزين قائِلين : أَصَحيحٌ ما سَمِعنا عَنك ؟ فقال : لَوْلا ما فعَلْتُه لكان من الهالِكين ، وإنّى لأَستحقُّ مِنه شكرًا جميلا ، ولو كنت كثير الكلامِ كما يَقولُ ما فعلْتُ معه هذا الصّنْعَ الجميل ، وسأقصّ عليكم قصة تعرفُون منها أَنّى قَليل الكلام ، ولا أُحبُّ اللغْوَ والفُضُول .

فقَدْ غضِبَ المنْتصِرُ بالله خليفَةَ المُسلمين يوما على عَشرةِ رِجال ، وأَمَرَ واليَه أن يأتيه بهم ، فَرأَيتُهم وهُم يَركبُون الزّورَقَ إلى الخليفة ، فَقلتُ فى نفْسِى : لا بُدَّ أن يكُونوا ذاهِبين إلَى وَليمة ، فركبْتُ معهم ، وبَعدَ بُرهةٍ وضَعَ أعْوان الوالى القُيودَ فى أَيديهم كما وضَعُوها فى يدى ، لأنّهم حَسبُونى مِنْهم ، ولَمّا كنّا أمامَ المنتصِر أمَرَ بضَرْبِ أعناقِ العشَرَة ،

فلما انتهى السَّيَّاف مِنْ قَتلِهِم وقفَ ينتظِرُ أمرَ الخليفة ، فقالَ له لِمَ لَمْ تضرِبْ عُنُق العاشِر؟ فقال : قَدْ ضربْتُ أعْناقَ عَشَرةِ رجال ، فأمرَ بعَدِّهم فوجدَهم عَشرة ، ثم سألني : ما حملكَ على أنْ تقِفَ ساكِتاً ، ولا تدْفَع عن نفسِك مَوْتاً مُحَقَّقاً ؟ فحكيتُ له حكايتي معهم ، ثمَّ قلْتُ وذلك لأني رجلٌ عاقلٌ حكيم ، لا أميلُ إلى كثرةِ الكلام ، ولسْتُ كإخوتي الذين من كثرةِ فُضُولهم أُصِيبوا بِعاهات ، فمنْهم الأعرج والمَفْلوج والأعمى والأَعْور ومقطوع الأذنين ومقْطوع الشفتين ولكل واحد منهم حديث عجيب ، فإنْ شئت يا أميرَ المؤمنين حدثْتُك بحديثِهم أجمعين :

أما الأوّلُ وهو الأعرجُ فقد كان خيَّاطا في دكان من دارٍ استأجره منْ رجلٍ غَنيّ يسكن هو وزوجُه في الطابق الثّاني من تلك الدار ، وكان بها طاحُونةٌ يقُومُ بالإشراف على إدارتها عاملٌ بأجرةٍ شهرية ، وذات يوم جلس أَخِي هذا أمام دكانه يخيط الثيابَ ، فرفع رأسَه فوجَدَ زوجَة صاحبِ الدار مُطِلةً من النافِذَة ، فأطالَ فيها النظرَ ، وأشارَ إليْها إشارةَ سُوء ، فاختَفَتْ في الدارِ غاضبَة ، ولما حضر زوجُها شكَتْ إليهِ ما حصل من أخي الخياط ، فعزمَ على أنْ ينتَقِمَ مِنْه ، فدعاهُ إلى بيتهِ ليلا ، فظنَّ أخي أنّ تلكَ الدّعوةَ من تدبيرِ زوجتِه ، لتتمكّن من الاجتماع به ، فَفرِحَ وأجاب الدعوةَ ، ولما دخل الدارَ سلّمهُ صاحبُها إلى عامله بالطاحونة ، ووصَّاه أنْ يكَلِّفَه إدارتَها حتى الصباح ، وربَطَ العامِلُ أخي في الطاحونةِ ، وجعل يَسُوقُه ويَضْرِبهُ ، حتى أشبَعَهُ ضرْباً وتعذيبا ، وفي



الصباح أخَذَه صاحبُ الدار إلى الوالى ، وشَكا إليهِ ما فعله ، فضَرَبهُ الوالى وأَرْكَبَه جَملا وأَمَرَ أنْ يَطُوفُوا به فى أنحاء المدينة ، لينَالَ خِزْىَ الفضيحة ، وفى أثناء طوافِهم به وقَع من فَوْقِ الجملِ فكُسِرَتْ رجْلُه ، وأُصيبَ بالعرج ، وقدْ عطفْتُ عليه وأسكنْتُه معى فى دارى ، وقُمتُ بالإنفاقِ عليهِ إلى الآن ، فابتسم الخليفةُ وقال : أحْسَنْت ، فقلت : ولَنْ أسكُتَ حتى تَسْمعَ منّى الأحاديثَ عنْ بقيةِ إخوتى واحداً واحداً ، ولا تحسبنَّ أنّى كثيرُ الكلام ، فقالَ فرَّحْنا بحديثك اللذيذ . فقلت :

وأما أخى الثانى وهو المفلوج فكانَ ماشياً يوما فى شَوارِع المدينة ، فقابلتهُ عجوزٌ وقالتْ له : ألا تُحبّ أن تكسب ثوابًا عظيما ؟ فقال : نعم ، فقالت : خذْ بيدى يا ولدى حتى أَصِلَ إلى دَارِى ، واللهُ يُعافيكَ ويقوّيك ، فأمسك يدها وسار بها حتى أوْصلها إلى دارِها ، فأقسمتْ عليه أن يدخُلَ الدارَ ويشربَ القهوة ، فلما دخلَها وجدَ عَبْدا أسودَ طويل القامة ، مَفتُول العضلات عريض الصدر مُخيف الطلعة ، فأشارتْ إليه العجوزُ إشارة فَهمها ولكنّ أخى لم يفهم مِنْها شيئًا ، فأخذه إلى حُجرة ليسَ فيها نافذَة ، وهُناكَ سلبه نقوده وحلقَ له رأسَه وحواجبَه وشارِبَه ، وخاف أخى أن يُصابَ بأذى أكثرَ من ذلك ، فتوسَّلَ إلى العبدِ أن يَمُنّ عليه بإطلاق سَرَاحه ، فأخذه العبْدُ إلى بابِ البيت ودَفعه إلى الزّقاق ، ففرّ أخى وهُو يرتعِدُ فزَعا ورُعْبا ، وعادَ إلى بيته وهو لا يكادُ يُصدّق بنجاته ، وأَصابه الفالج بسببِ ذلك ، فقال الملك : زدنا من حديثك ، فقال : وما كنت

لأسكتَ حتى أذكر الملكِ حوادِث إخوَتى جميعهم ، وسأبدأُ الآن فى حادثة أخى الثالث .

كان أَخى الثالثُ أعمى ، فقيرًا شَحاذا ، طرق يوما بابَ غَنى من الأَغنياء ، فأَطلّ عليه من نافذةٍ فى الطابق الثانى وقال : مَنْ بالباب ؟ فقال أخى : رجلٌ يُرِيدُكَ فى شئ يسير ، فنزلَ إليهِ وسأله عما يُريد ، فقال : أعطنى شيئًا أقْتاتُ به ، فقال له : تفضّل ، وأخذه معه ، وصعد به إلى الطابق الثانى ، ثم قال له : سهّل الله لك ، فقال أخى أتعبْتنِي بالصُّعود إليك ، فلِمَ لَمْ تقُلْ ذلك وأنا بباب بيتك ؟ فقال الغني : وأنت أتعبْتَنى بالنزولِ إليك ، فلِمَ لَمْ تسألنى وأنا فى حُجرْتى من الطابق الثانى ؟ فقال أخى : انزلْ معى إلى الباب ، فقال : مِنْ ورائك سُلّم البيت ، فانزل وحْدَك سَريعا وإلّا ضربتك . فنزلَ أخى وحْدَه ، وفى الدرجة السّفلَى من السّلم زَلّتْ رِجْله ، فوقع على وَجْهِه ، ثم نهض مُتألما ، وخرَج من البيت مغموما ، وكان له رُفقاء ثلاثة عُمْى ولهم مكانٌ يجمعُهم ، ويضعون فيه ما يجمعُونه من الشحاذة ، وهُمْ شُركاء فيما يجْمعون ، فقال فى نفسه : أستريحُ اليومَ ، وأذهبُ إلى رُفقائى ، فآخذ شيئًا مما جَمعناه ، أقْتاتُ به فى يومى هذا ، وسارَ ومِنْ خلفه ذلكَ الغَنِي يَتبَعُه حيثُ سار ، ولما دخل أخى الدار التى له ولرُفقائه دخل الغنىُّ من ورائه خفيَةً ، ليرَى ماذا يصنع هذا الأعمى ، ثم اختبأَ فى مكان بحيث يرى منه أخى ورفقاءه ويَسْمَعُهم وهُمْ لا يشعُرون .

سلمَّ أخى على رفقائه وسلموا عليه ثم قالوا : ما فعلَ اللهُ بك صَبيحة هذا اليوم ؟ فقال : طَرقْتُ بابَ غنيٍّ سخيف ، لا باركَ اللهُ فى ماله ، ثم حكى لهم ما حصل له ، وقد عزمتُ على ألّا أتسوَّل هذا اليوم ، فأعْطونى شيئاً مما جمعناه ، آكلُ منه إلى غد ، فأحضَرُوا بينهم ما جمعوه ، فوجدَه الغنى ما لا كثيرا ، وعلم من حديثهم أن مقدارَه عشرةُ آلافِ درهم ، ثم ناولُوا أخى شيئاً منه ، ودفنُوا الباقِى فى مكانه ، ثمَّ انْسلَّ الغنى خارجاً وهُو يقولُ فى نفسه : لو كان هؤلاء الناس كُرماء على أنفسهم مارضوا بالشحاذَة وعندهم شىء من المال . فقال الخليفة أتحبّ أن نُعطيك جائزة وتفارقنا ؟ فقلت : لَا أُفارقُكَ حتى أَسْرُدَ ما بَقِى من حوادثِ إخوتى .

وهذا رابعهم الأعور ، فقد كان من كبار الجزّارين ببغداد ، وزَبائنهُ الأعيان الوُجَهاء ، ورَبح من الجزارة مالا كثيرا ، فاشترى الأطيان والعبيد والجوارى . وذات يوم جاءه شيخ كبير ، واشترى منه لحمًا ، وأَعْطاه ثمنَه ، دَراهم من فضة بَراقةٍ لامعة ، فاعْتزّ بها وحَفِظها فى صُندوقٍ وحدها ، وجعل ذلك الشيخ يشْترى مِنْه لحمًا ، ويعطيه الثمن من تلك الفِضة ، وأخى يحفظُها وحدها مُدة خمسةِ أشهر . ولما فتح الصندوق بعد هذه المدة وَجَد الدراهم وَرقاً أبيض فدهِش وحزن ، ثم عرض أمرَ هذا الشيخ ودراهمه على كثيرٍ من الناس ، فدهشوا وقالوا : إذا جاءك الشيخُ فأمْسِكه وامْضِ به إلى الوالى . فلما جاءه واشترى اللحْمَ كعادَته وأعطى أخى الفضة البراقة — أمسكَهُ أخى ونادَى الناس والأصحابَ ، ليُساعدوه على

المضىِّ به إلى الوالى ، فقال الشيخ لأخى : إنّك جزارٌ لا ذِمةَ لكَ ولا دين ، لأنك تذبحُ الناس وتبيع لحومهم ، على أنها لحومُ غنم ، فقال : إنْ كنتُ فعلتُ هذا فمالى ودمى حلالٌ لك ، فالتفت الشيخُ إلى من حوله من الناس ، وأمرهم أنْ يدخلوا الدكان لِيرَوا لحوم الناس مُعلقة ، فدخلوا الدكان ووجَدوا إنساناً مَذْبُوحاً معلقا ، فهجموا على أَخى ضَرْباً وسبّا ، وهمُّوا أن يذْهبوا به إلى الوالى ، ولكنه استَطاعَ أن يفرّ منهم ويهرب إلى مدينةٍ أخرى ، وفيها اشتغل بالسَّكافةِ ، حتى لا يعرفه أحد ، وكان يجلسُ فى الشوارع ، وعلى أفواه الأزقة ، يُصلح الأحذية القديمة .

ومَرّ به حاكم المدينةِ وهُو خارجٌ إلى الصيدِ ، ومعه غِلْمانُه وجُنودُه ، فلما وقع نظرهُ عليه تشاءمَ وغَضِب ، وعاد إلى بيته ، بعد أن أمر غلمانه بضربِ أخى .

وسألَ أخى عن سبب ضربه ، من غير ذنبٍ فعله ، فقيل له : إن حاكم المدينة يتشاءم من العور ، وبخاصّةٍ إذا كان فى العينِ اليُسرى ، وقد كنتَ فى طريقه وهو خارجٌ إلى الصيدِ ، فتشاءم وعكرت عليه صَفْو يومه ، وهو الذى أمر بضربك ، ولو اشتد به الغضبُ لأمر بقتْلك .

خافَ أخى أن يعيش فى هذه المدينة الظالم حاكِمها ، فرحل إلى غيرها ، وكانَ وصولهُ إليها بعدَ الغروب ، فأخذ يمشى فى شوارعها وأزقتها ، ليجدَ له مكاناً يَبيتُ فيه ، وبعد التعب رأى باباً مفتوحاً فدَخله ، فأتَى دِهْليزاً طويلا فسارَ فيه ، ليلتقِى بأحدٍ يسأله المبيت عنده ، وإذا

برجُلَيْنِ يمسكانه ويقولان له : وقَعتَ في أَيدينا يا ملعون ، أنتَ الذي حرّمت علينا لذيذَ النوم ، ثلاثَ ليالٍ مُتواليات ، وتريدُ سَرِقة أَموالنا ونحنُ نائمون ، فَضحِك أخي وقال : أصْبحنا إخوة في الألم ونكد المعيشةِ ، وإنْ سمعتم قصتي منحتموني شفقتكم وإكرامكم حتى الصباح ، فقالوا : وما قصتُك يا هذا ؟ فحكى لهم ما جرى إلى أن كان بين أيديهم ، فعجبُوا وأضافوه عندهم حتى الصّباح ، ثم رجع إلى بلدته مختفيا في شيخوخته ولحيته الكثيفة المرسلة ، وحرفة السكافة الجديدة ، ولا يزالُ مقيما فيها ، يعرف الناس ولا يعرفونه . فقال الخليفة : لعلّ هذا آخرُ حديثك ؟ ! فقال : لا يزالُ لحديثي بقية ، وسأسمعُك قصة أخي الخامس .

وَرِثَ أخي الخامس عن أبيه مائة درهم ، فاشترَى بها أوعيةً من زُجاج ، ووضعها في قفصٍ ، وجَعل يتجول بها في الحارات ، ينادي لبيعها .

وفي يومٍ اشتدَّ حرُّه جلس في ظلّ ظَليل ، ووَضعَ القفصَ أمامه ، وطَفِق يفكّرُ في حاله ، وساورتْه الأماني التي كثيرًا ما تُداعب كل فقيرٍ مثله ، فأطلق العِنان لخياله ، وقال في نفسه :

سأبيعُ هذه الأوعية بمائتي درهم ، ثم أشترى بثمنها أوعية زجاجية أخرى ، فأبيعها وأربح رِبحًا كثيرًا ، ولا أزالُ أشترى وأبيعُ وأربح حتى أحصُلَ عَلَى مالٍ كثيرٍ أشترى بِهِ أعْنزا وشياهًا ، ثم أبيعها وأشترى بثمنها ضَيعةً واسعة ، وبُيوتًا كثيرة ، ثم أتزوَّجُ فتاة من أغنى البيوت ،

وأجعلها عيالى ، تحت أمرى وطاعتى ، وسيهبُ الله لى منها غُلاماً ، أُرسله إلى المدرسةِ حين يبلغُ من العمر سبْعاً ، وإذا رفض الذهاب إليها يوماً ، أو أَذنبَ ذنباً يستحقُّ من أجله التأديب ، رفسْتُه برجلى هكذا ، وضرب القفص الذى أمامهُ ضربةً قوية ، فتدحرج وانكسر ما فيه من الأوعية الزجاجية .

فاستيقظ من خياله ، فوجده قد ضيَّعَ جميع ثروته ، برفْسَةٍ شاردةٍ من رجلهِ ، وأصبحَ لا يملك شيئاً ، فندم وقال :

توهَّمتُ أنى غنىٌّ ، فاستكبَرْتُ على عبادِ الله ، فعاقبَنى الله بالفقر والحرمان . .

وبينما هو جالسٌ ، يُساوِره ندمٌ وبُؤس ، إذ مرَّت به امرأةٌ فى جمعٍ من جَواريها فوجدتْهُ كئيباً حزيناً ، فسألتْ عن حاله ، فقيل :

تاجرٌ وضَع رأس ماله فى هذه الأوعية الزجاجية ، وانكسرت وخَسِر بذلك ماله ، وصار فقيرًا لا يملكُ شيئاً ، وقد جلس فى بُؤْسه وغمِّه يندُبُ حَظَّه .

فعطفَت عليه ، وأمرَت جاريتها أن تُعْطِيهُ كيسَ نقودٍ مما تحمله ، فشكرَ لها جميل صُنعها ورجعَ إلى بيته ، وهُناك فتحَ الكيس فوجدَ فيه خمسمائة دينار ، فكاد يطيرُ فرحاً .

وبينما هُو فى سروره هذا إذ بالباب يطرقهُ طارِق ، ولما فتحهُ وجدَ عجوزًا فقالت له :

إنَّ وقت الصلاة قد قرُب ، وإنى بغير وضُوء ، فهل تدخلنى بيتك لأتوَضَّأ ، فقال لها :

تفضَّلى ، وتوضَّئِى ، وصلِّى ، واستَريحى ، فالبيْتُ بيتُك ، وأنا ابنُك وخادمُك . فقالت :

أكرَمكَ اللهُ يا وَلدى ، ولما توضَّأَت وصلّتْ ركعتين جعلت تدعو لأخى وتشكره ، فمدَّ يدَهُ إليها بدينارين ، فامتنعت قائلة :

أبْعِدْ عنى نقودَك ، وإن كنت تريد المزيد فأَرجعها إلى التى أهدتْها إليكَ ، فإنها ما فعلَتْ ذلك إلاّ لتعقد العلاقة بينها وبينَك ، وحينئذٍ تستمتع بمالها وجمالها ، فقال :

وكيف أصلُ إليها وأنا لا أعرفها ؟ فقالت : إن أردْت الآن جمعتُك بها ، ففرحَ أخى وقال :

ولكِ عندى مكافأة قيِّمة :

ومشَت العجوزُ ومشى وراءها أخى ، حتى وصلَتْ به إلى باب كبير ، فطرقتْه فانفَتحَ ، ودخلت وأخى معها ، وسارا فى دِهْليز طويل ينتهى إلى حُجرة مفروشةٍ بأثاثٍ فاخر ، فأَجْلسَتْه فيها ثم مضت .

وما لبثَ أخى غير قليل حتى جاءته امرأةٌ جميلة ، فى ثيابها الحريريَّة ، وناولتْهُ شرابًا حُلوًا ثم انصرفَتْ ، وبعد بُرْهةٍ من الزمن دخل عليه عبدٌ أسْودُ ، وفى يده سيفٌ مُصْلت ، فأَخذ منه كيسَ نقُوده ، وقطعَ بالسَّيف أذنيْه ثم انصرف .

أدْرك أَخِي خُطورة الموقف فتماوَتَ ، وجاءَتْ جارِيةٌ وَمَعها شيءٌ وضعتْه على جُرحه ، فوقف الدَّم عنْ نزيفه ، ثم أحضرت جاريتين ، حملتاه إلى حجرةٍ أخرى بها أشخاصٌ ميِّتون .

ولما جاءَ الليلُ نهض أخِي ، وفكَّر فى حيلةٍ ينْجو بها ، فوجدَ فى الحجرة نافذةً مُحكَمة الإغلاق ففتَحها ، وفرَّ منها إلى الشارع هاربًا ، ومكث فى بيته حتى برئَ من جُروحه . وكان يجرى عليهِ رزقُه من أيدى المحسنين .

أرادَ أخى أن ينتقم من العجوزِ والعبْد الأسْود ، فتنكَّر وأحضرَ سيفًا ماضيًا ، وكيسًا ملأَهُ قِطعًا زُجاجية صغيرة ، وقابل العجوزَ فى فى الطريق فقال لها :

هل عندكِ ميزانٌ أزنُ به هذا الكيسَ من النقود ؟

ففرحَتْ وقالت : الميزان يا وَلدى عِندى فى البيت ، فهيَّا بنا إليهِ ، لتزن نُقودك ثم ذهبتْ بهِ إلى تلك الدار ، وأجلَسَتْهُ فى الحجرة المفروشةِ بالأثاث الفاخر ، والتى ضَرَبهُ العبْدُ فيها بسيفه .

ولما جاءه العبْد كعادته بادَره أخِي بسيفه فأوْقعه قتيلا ، ثم خرج من الحجرة إلى العجوز فقال :

هل تَعرفيننى ؟ فقالتْ : لا أعرفك يا وَلدى ، فقال :

أنا الذى توضَّأْتِ وصليتِ فى بيته ، ثم خدعتنى وجِئْتِ بى إلى هذا البيت ، وعاجلها بسيفه فقتَلها .

أما المرأة الجميلة فإنه أحضرها وسألها : مَنْ أنتِ ؟ ولماذا تفعلين بالناسِ هذا ؟

فقالت : أنا بنتُ تاجرٍ منَ الأغنياء ، واحتالَتْ عليَّ هذه العجوز ، وحبَسَتْنى فى هذه الدار ، عِندَ ذلك العبد الأسْود ، وجَعلت العجوزُ تأتى بالناسِ واحداً واحداً ، وهذا العبدُ يقتلهُم ويأخذ أموالهم ، حتى مُلئتْ هذه الدار بالناس وأموالهم ظلْماً وعُدْوَاناً .

والحمدُ للهِ الذى جعل خلاصى من هذه العجوز وذلك العبدِ على يديك ، فإن أحببتَ أن تبقينى عَلَى أن أكونَ زوجاً لك ، وتنقُلَ هذه الأمْوال إلى بيتك ، كان ذلك خيرًا لى ولك ، وما عليكَ إلَّا أن تخرج وتحضِرَ رجالاً يقومون بنَقْل هذه الأموال إلى بيتك ، لنُغادر تلك الدَّار التى كلُّها ظلْمٌ وعُدْوان .

فاطمأنَّ أخى إلى قولها ، وخَرجَ ليُحضِر الرجال ، ولما جاء بهم لم يجد المرأة ، ولم يجد الأموال ، فخرجَ من الدار كاسِفَ البال نادماً .

ولو سَمِعتَ أيها الملِكُ قصة أخى السادس لدهشْتَ وعَجبتَ ، فقال : ليسَ لليأسِ منْكَ مجال ، ولم يبق من حديثكَ إلَّا قليل ، فحدِّثنا بما تريد . فبدأ يقول :

وهذا أخى السادس فقيرٌ لا عملَ له ، يجرى إليه رزقه من سُبُل الإحْسان والمعُونة ، رأى فى طريقهِ وهو سائر ، دارًا أمامها خَدم ، عليها سِمَاتُ الغِنى والمهابة ، فسألَ عن صاحِبها ، فقيل :

إنها لأحدِ أبناءِ الملوك ، فسألَ حُرّاسَ الباب ، هلْ يمكنُ لصاحبِ هذه الدار أن يُحسِنَ إليَّ بشيءٍ من المال ؟ فقالوا له :

ادخل فإنك واجدٌ ما تُحب ، فمشى فى طريق طويل ، إلى أن وصل إلى قصر جميل ، وسطَ حديقةٍ مختلفة الأزهار ، تُعَطِّرُ أجواءها الرائحة الذّكية ، ووجد فى مدخل القصر رجلا ، بشّ الوجه ، جميلَ اللِّحْية ، فلما رأى أخِى قادماً إليه نهضَ وحيَّاه ، وسأله عن حاله ، فقال أخِى :

فقيرٌ لا أملكُ شيئاً ، وفى حاجة إلى شيء من المال ، أَقضى به حاجتى فَأَسِفَ الرجُل وقال :

كيف أكونُ حيّا فى بلد يشكو فيه إنسانٌ جُوعاً وفقراً ؟ !

تفضّل اجلس حتى أُعطيك المالَ الذى يكفيك شرَّ الحاجة ، ولعلّك جائعٌ الآن ، فقال أخى :

نَعمْ ، فأمر غلمانهُ أن يُحضروا فى الحالِ مائدة ، فجعلوا يجيئون ويذهبون ، كأنّهم يُعدُّونها ، ثم أخذنى وجلسنا أمام المائدة الموهومة وجعل صاحبُ القصر يحرِّكُ شفتيه وماضِغيْه ، كأنه يأكل ، ويقولُ لى

كُلْ فإنك جَوعان ، فكان أخى يُحاكيه فيما يفعل ، كأنه أيضاً يأكل ، وجعل صاحبُ القصر يطْلبُ من غلمانِه أصنافَ الطعام ، صنفاً بعد صنف ، وهم يغدون ويروحُون كأنهم يُحضرون هذه الأصناف ولا يرى أخى منها شيئاً ، وأخيراً قال أخى :

كَفى فقد شبعتُ . فقال صاحبُ القصرِ :

خُذ هذا القدحَ منَ الشراب فإنه لذيذ، وليسَ في يَده شيء يناوله فمدّ أخي يده كأنه يأخذه، ورفعَ يده إلى فمِه كأنه يشربه. ثم قال صاحب القصر:

أظنُّ هذا الشراب قد أعجَبك؟ فقال أخي:

ما شَرِبْتُ ألذّ منه في حياتي، فقال:

هنيئاً مريئاً، وأرادَ أخي أن ينتقم من صاحب القصرِ جَزاءَ سخريته بالضيوف، فأظهرَ أنه سَكِر من الشَّراب، ورفع يده ولَطَمَ وَجْهه، ثم أتبَعَ اللطمةَ بأخرى، فقال صاحبُ القصر:

ما هذا أيُّها السافل؟ فقال: يا سَيِّدي أنا ضَيفُك الذي أطعمتَهُ، وأسقيتهُ الخمرَ فَسَكرَ، فلا تُؤاخِذني فإنِّي سَكْرانُ لا أعِي ما أَفْعلُ، فَضَحكَ صاحبُ القصرِ وقال:

إنَّ لي زمناً طَويلاً أَسْخر من الناسِ، فما رأيتُ فيهم مِثلك صاحب ذكاءٍ وفِطْنة، ولهذا عفَوْتَ عنْك، وجَعلتُك نديمي وصاحبي، ثم أمَرَ صاحبُ القصرِ بإحضارِ الطَّعامِ فأكلا وشربا، واستَمْتَعا بغِناء الجواري وعزْف الموسيقى، ولَبِثا على هذه المتعة مدة من الزَّمان، حتى مات الرجل واستَوْلى السُّلطان عَلى أمواله، وخَرجَ أخي من المدينة لا يملكُ شيئاً.

وبينما هو سائرٌ في طريقِه، قابلَه جماعةٌ من قطَّاعِ الطُّرق، فأسروه وطالبوا منه أن يفتَدي نفسهُ بالمـالِ، فأقْسمَ أنه لا يملكُ شيئاً، فأَخرجَ شيخُهم سكيناً حادَّة وقطع بها شفتَيهِ، حتى يعترف ويعطيهم الفدْية،



ولكنه لم يكن مَعهُ شيءٌ من المـال يدفعهُ . فلما يئسوا منه حملوا أمتعتهم وارتحلوا ، وتركوه وحدَه ، يُعالجُ آلامَ قطْع شفتيه ، ثم رجَع إلى بلدته .

وهذه أيها الخليفةُ أخبـار إخوتى ، رأيتُ من الواجب أن أُطْلِعك عليها ، فقال الخليفة :

إنَّكَ مُزين حقًّا ، وما أكثَرَ صمتك ، وأقلّ كلامك ، ولكن اخرج من هــذه المدينة ، وابحث لكَ عن مدينة أخرى ، تسكن فيها . فإنى لا أحب أن يسكن مدينتى إلاَّ مَن كَثُرَ كلامه ، وقلّ صمته .

قال المزين : فخرَجْت لساعتى ، وسكنتُ فى مدينةٍ تبْعُد كثيرًا ، ولمـا مات الخليفة رجعتُ إلى مدينتى وسكنْتُ فى بيتى ، حتى التقيتُ بهذا الشابّ ، فأنقذْتهُ من قتلٍ محتوم ، وكان عرجهُ بسبَبى فِدْية لنفْسه . . .

وقال الخياط : فلما عرفْنا أن المزين كثير القول والفُضول . وأنه قد ظلَم الشابَّ ، وتسبَّبَ فى عرجِه حَبَسْناه حتى أكلْنا وشربنا ، ثم افترقْنا ورجعتُ إلى منزلى ، فطلبتْ منِّى زوجَتى أن نخرج للنزهةِ حَسب عادتنا ، فخرجنا وتمتعنا بمظاهرِ الطبيعة . وبينما نحن راجعون من نزهَتنا قابلنا هذا الأحدب فأخذْناه معَنا إلى منزلِنا .

ولمـا جلسنا نأكل اعترضَتْ حلقَه شَوْكةُ سمك وهو يأْكل ، فمات لساعتِه ، فحملتُه إلى الطبيب اليهودى ، وحملَهُ هو إلى المُباشر ، وهذا رماه فى طريق النصرانى ، وهذه قصتى .

فقال الملك :

أَحضِروا المزين حتى أسمع كلامه ، وبعد ذلكَ أنظر فى أمركم ، فلما حضرَ قال الملك :

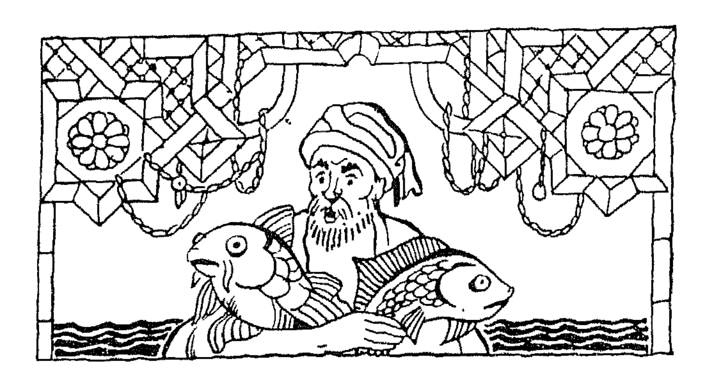
اذكروا له جميع ما وقع منه ، وما حدثَ للأحدب ، فلما سمع قولهم هزَّ رأسه وقال :

أحضِروا الأحدب بين يدىّ ، فجلسَ عند رأسه ، ثم نظر فى وجْهه وضَحِك ضحكاً عالياً وقال :

لِكل موتةٍ سبب ، وموت هـذا الأحدب من أعجب العجب ، فقال الملك : وكيف ذلك أيها المزين ؟ فقال :

إن الأحدب حىّ لم يمتْ ، وأخرج من جيبه وعاء من دهن ، ومَسَحَ رقبةَ الأحدب ، ثم مد أصابعه فى حلقِه ، فأخرج منهُ قِطعةً من السمك ، ونهض الأحْدب على أثر ذلك قائماً يقول :

لا إله إلَّا الله محمدٌ رسولُ الله ، فعَجِب الملك والحاضِرُون ، وأنعم عليهم جميعهم بالعفْو والمال الجزيل ، وخلَّى سبيلهم أجمعين .



خليفة الصياد مع القرود

(١)

كان بمدينةِ بغداد فى الأزمانِ الغابرةِ، صيادٌ يسمَّى خليفة؛ وكان فقيراً لم يتزوّجْ أبدًا، وذاتَ يومٍ حَمَل شبكتَه على كتفِهِ، وذهبَ إلى البحْرِ كعادتِهِ؛ وهناكَ على ساحلِهِ شمَّر عن ساعدِه، وجعلَ يُلقى فى البحرِ شبكتَه، ثم يجرُها إليه، فيجدُها فارغةً لمْ تُمسِكْ شيئًا؛ واستمرَّ على هذه الحالِ عشرَ مراتٍ، وهوَ لا يجــد شيئاً؛ فضاق صَدرُه، واضطرب فِكرُه؛ وجعلَ يقول: أستغفرُ اللهَ العظيم، الذى لا إله إلَّا هو الحىّ القيُّوم، وأتوب إليه؛ لا حول ولا قوّةَ إلَّا باللهِ العلى العظيم؛ إنَّ اللهَ هو الرزّاقُ ذو القوّةِ المتينِ؛ اللهم لا رادَّ لقضائك، تبْسُطُ الرزقَ لمن تشاء

وتَقدِرُه على من تشاء ؛ فلكَ الحمـدُ على ما قضَيت ، ولك الشكرُ على ما أَنْعمتَ به وأَوْلَيت .

ثم عزمَ على أن يُلقِيَ شبكتَه المرة الأخيرة ، لعلَّ اللهَ لا يخيِّبَ رجاءه فرماها في البَحر بقوَّة ، وأمسَكَ حَبْلها ، وانتظر مليًّا ؛ ثم جرَّها إليه ، فوجدَ فيها قِرْدًا أَعورَ أعرَجَ ؛ فقال : إنا لله وإنَّا إليه راجعون ، ما أَتْعَسَ حظِّى ، وأَنْحسَ طالِعى ؛ ولكن ذلك تقديرُ العزيزِ العَلِيم ؛ وأَخذ القردَ وربَطه إلى شجرة على شاطئِ البَحرِ ، ولضيق صدره ، وتشاؤمِه من هذا القِردِ الذى جاءه ، همَّ أن يَضربه بسَوطٍ فى يده ، فعاجَلَه القردُ قائلًا : يا خليفَة ، أَمْسِكْ عَنْ ضَرْبى ، ودَعْنى مَرْبوطا إلى شجرَتى ، وارجعْ إلى البحْر فأَلْقِ فيهِ شبكَتك ، وارجُ مِنَ الله أن يرزقَك ، فهُو خَيْرُ الرازقين .

فدهِش الصيادُ من قردٍ يتكلَّم ! واختارَ أن يطيعَه ، طَمعًا فى خيرٍ يُصيبُه ؛ فأَلقاها فى البَحرِ ، ثم أخرَجها بعدَ مدةٍ قَصِيرةً ، فجاءته تحملُ قردًا أَفلَج ، كَحِيلَ العينيْنِ ، مُخضبَ اليدَين ، يُغطى وَسطَه ثوبٌ خَلق وكان يضحك . فقالَ خليفة :

الحمدُ لله على ما أنعمَ ورَزَق ، يظهر أن البحرَ قدْ بدَّل بسَمكهِ قرودًا وربطه فى الشجرة بجوارِ زميلهِ ثم قال للقردِ الأول : ما أنحسَ مشورتك ! وهَلْ أنالُ خيرًا ما دمتُ قد استفتحتُ بعَورك وعرَجك ؟ ! ورفع يده بالسَّوط يريد ضَرْبه ، فقال القرد : أَكرِمنى من أجلِ زميلى هذا ، وابتَغ

الخيرَ عِندَه ، فستَجِدَهُ سبباً فى قضاء ما تريد . فعفا عنه ، ورمى السوط من يده .

والتفت إلى القرد الثانى كأنه يسأله : فقال هذا القرد : يا خليفة ، إن أنت أطعتَنى ، ولم تعص لى أمرًا — كنتُ السببَ فى غِناك .

فقال خليفة : وماذا أنتَ آمرٌ به ؟

فقال القرد : اذهبْ إلى البحر ، وبَعد أن تلقِى فيه شبكتَك وتخرِجَها أشيرُ عليك بما أرى .

ففعل ما أَمَر ، وطرح شبكته ، وأخرجها ، فجاءت بقردٍ ثالث أحمر ، مخضَّب اليديْن والرِّجليْن . كحيل العينَيْن ، على وسطه ثوبٌ أزرق ، فقال خليفة : سُبحان رَبى العظيم ، هذا يومٌ مُبارك من أولِه إلى آخِره ، أو ذلك يومُ القرود ؟!

ثم التفت إليه قائلًا : وأنت الآخرُ مَنْ تكون ؟!

فقال القرد الثالث : ألستَ تعرفُنى ؟!

فقال خليفة : بَلَى ، كنَّا نلعبُ سوِيًا ونحنُ صِغار ، ولهذا أعرِفُك !! أخبِرنى مَنْ أنتَ ؟!

فقال القردُ : أنا قرد أبى السَّعادات ؛ أُصبحه فيربحُ خمسةَ دنانير ، وأُمسيهِ فيربحُ خمسةَ دنانير .

فالتفتَ خليفةُ إلى القرد الأول ؟ ونظَرَ إليه نظرَة غيظٍ وألمٍ ، وقال : أسمعتَ كيفَ كان صباحُ قرُود الناس ؟ ولكِنكَ صبَّحتَنى بعَورِكَ

وعرَجك ، فأغلقتَ فى وجهى أبوابَ الرِّزق ، وجعلتنى فى أسوأ حالٍ .
ثم همَّ أن يَضربَه ؛ فقال القرد الثالث : لا تكن محبًّا للضررِ والأذى ،
وتعالَ أُرشدكَ إلى ما فيهِ صَلاَحُكَ ونفعُكَ ؛ فأقبل عليهِ راغباً فيه وقال :

وماذا أفعل يا سيد القرود ؟

فقال : ارْمِ الشبكة فى البحرِ ، ثم أحضر لى ما تجىء بِهِ مَهْما يكن شأنهُ وبَعدَ ذلك أحدِّثك بما يسرُّك .

فلبّى إشارته ، فأخرجَت له حُوتاً كبيرَ الرأس ، لهُ ذَنبٌ كالمِغرفة ، وعَيْنان حمراوان ، كأنهما ديناران ؛ فَعظُمت دهشتُه ، لأنهُ لم يصطدْ فى حياته مِثلَ الذى اصطاده هـذا اليومِ ، ثم أحضَرَه بَيْنَ يدَىْ قردِ أبى السَّعادات كما أمَره ، فقال له :

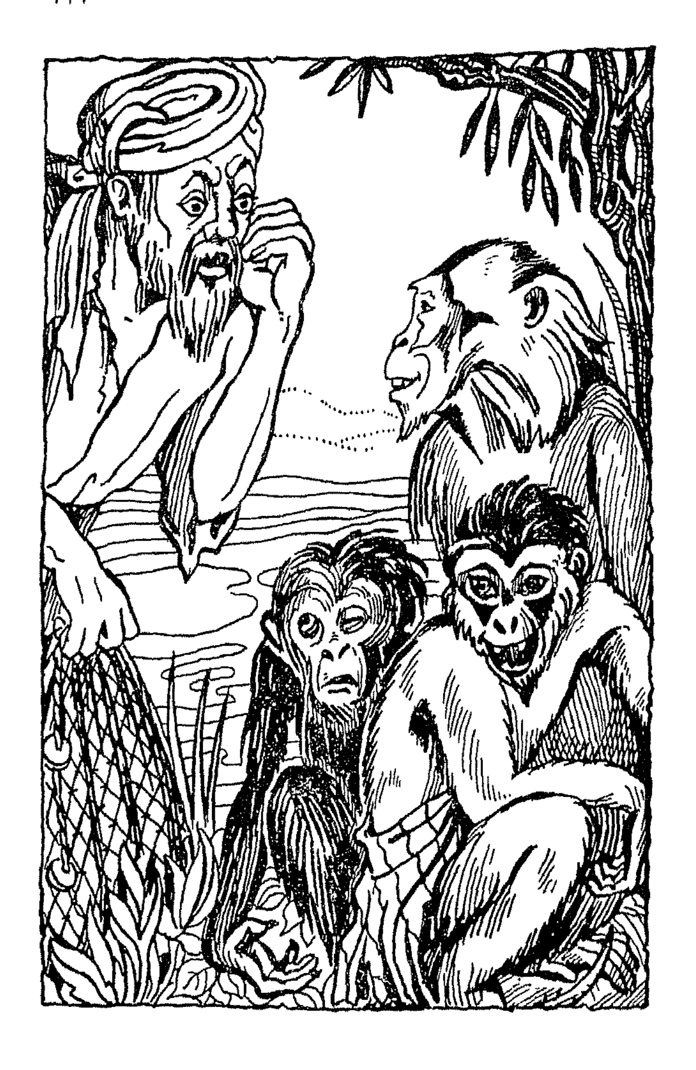
افهَمْ عَنى ما أقولُ ، ففيهِ صلاحُ شأنِكَ إن شاء اللهُ تعالى .

فقال : إنى مُطيع فأْمُر بما تريد .

فقال : اربطْنى هُنا إلى شجرَة ، واذهبَ إلى نهرِ دجْلَة ، وارمِ فيـه الشبكة ، فإذا أخرجتْ سمَكةً كبيرة لم تقعْ عينُكَ عَلَى أجْمَلَ منها فهاتها وبعد ذلك أشيرُ عليك بما تفعل

ذهب الصياد إلى نهر دجلة ، وطرح شبكته ثم جذبها، فرآها مُمسكة سَمَـكةً كبيرةً ، كأنها عجلٌ صغيرٌ؛ فحملها ، وذهب بها إلى قرد أبى السعادات .

فلما أحضر السمكة بيْن يدَيْه أمَره أن يضعها فى قفةٍ ، بحيث يكون



من تحتها ومن فوقها حشيشٌ أخضر ، ثم يحمِلُ القفَّة ويذهَبُ بها إلى مدينَةِ بغدادَ ، وهناك يَدْخلُ سُوقَ الصَّيارفِ ، فيجدُ في صدرِهِ دكانَ شيخ الصيارفِ أبي السَّعادات اليَهوديّ ، قد جلس فيهِ عَلَى حشيَّةٍ ، وأسْندَ ظهرَه إلى مخدَّةٍ جميلة ، ووضعَ بين يديْهِ صُندوقين : أحدهما للذهب ، والآخرُ للفضة ؛ وتحت يدهِ غِلمانه ومماليكه .

قال القرد : فإذا كنت أمامه فضَع القُفة بين يديه ، ثم قلْ له :

يا أبا السعادات ، لقدْ خرجْتُ اليوم للصَّيْد ، وطرحتُ الشبكة باسمك في نهر دجْلة ، فجاءتْني بهذه السمكة ، فقدمت بها إليكَ ، فإذا سألك : هلْ أريْتَها أحدًا غيري ؟ فقل : لم يقَع نظر أحدٍ غيركَ عليها ، وحينئذٍ يأخُذها منكَ ، فإذا أعطاك فيها دينارًا فرُدَّه إليه ، فإذا زادَه إلى دينارين فلاَ تقْبلْ ، ومهما يدْفعْ من المال فلَا تقبلْ حتى يقولَ لكَ : وماذا تريده ثمنًا لسمكتِك ؟ ! وإذ ذاك تقول : واللهِ لا أبيعُ سَمكتي هذه إلا بكلمتين فإذا قال : وما هاتانِ الكلمتانِ ؟ فقُلْ أنْ تقِفَ بين هؤلاء الناسِ وتقول : أُشهدكم أني بعتُ قِردَ خليفة الصَّياد بقرْدِي ، ونصيبَه بنصيبي وبَخْتَهُ ببخْتي ؛ فإذا قال ذلك : فإني أصبحُك وأمسيك ، وتربح أنتَ بَعدَ ذلك كل يومٍ عَشرة دنانير ؛ وأما أبو السعادات اليهودي فَسَيكون قردكَ الأعْوَر سبباً في فناء ثروَته ، وضَياعِ مالِه يوماً بعد يوم ، حتى يصبح فقيرًا مُعْدِماً لا يملك شيئاً .

فقال خليفة : فهمْت كلَّ شيء يا سيِّدَ القرود ..

فقال : أما نحن — القرود والحوت — فاتركْنا نذْهب إلى البَحرِ كما كنَّا ، فسرَّحَهُنَّ جميعَهُنَّ ، واختَفينَ فيه .

أما خليفةُ فإنّه حملَ السمكةَ في قفّته ، ومَشَى إلى بغداد ، فجعَلَ الناسُ يَسْألونه : ما معكَ يا خليفة ، ولكنَّه لا يلتَفِتُ إلى أحدٍ منْهم ، حتى كانَ أمام أبي السعادات في دكانه ، فعرفه وقال :

أهْلًا بك يا خليفة ، ما حاجَتُك ؟ إن كان قد ظلمَك أحدٌ فأخْبرني لأذهبَ معَك إلى الوالي ليَرُدَّ إليْك الحقَّ ممَّنْ ظلمك .

فقال خليفة ما ظُلمتُ ولا خاصَمتُ أحداً ، ولكنّي خرجتُ من بيْتي إلى نَهرِ دجْلة ، وألْقيْتُ فيهِ شبَكتي ناوياً في نَفْسي أنَّ مايخرُجُ فيها من بخْتِك ، فوجدْت فيها هذه السمكةَ فجئْتُ بها إليك ، ثمَّ أخْرجها خليفة من قُفّتهِ ووضَعها بين يديْه ، فأعجَبتْه السمكةُ وفرح بها ، ثم قال: وحقّ التوْراةِ لَقدْ رأيتُ البارحَةَ في المنامِ كأنّي بين يدَي العُزَيْر يقُولُ لي : لقدْ أرسلتُ إليْك هديَّةً مليحة ، وأرجُو أن تكونَ الهديّة تلك السمكة وشُكْري لكَ إذْ كانتْ على يدَيك .

ثم سألَه قائلًا : بحَقّ دينكَ هلْ رآها أحَدٌ غيري ؟

فقال : وربِّ الكعبَة لَمْ يَرها إنْسانٌ غيرُك وغيري .

فأمر اليهوديُّ أحدَ غِلمانه أن يحملها إلى بيتِه ، وقال : قلْ لسُعاد : تَقْلي وتَشْوي منها ، وتهيِّئُ لنا الطعامَ حتَّى أعُود ، فحملَها الغلامُ وذهب إلى بيتِ أبي السعادات .

أما هُو فقَدْ أعطَى خليفة ديناراً ، فأَخَذه فى تلهُّفٍ ومَضى ، ثم تَذَكرَ وصيَّة القرْدِ لَه فرجع إليه ، وألْقَى دينارَهِ فى حجْرِه ، وقال : خذْ دينارَكَ وهاتِ سمك الناس ، ولا ينْبغى أنْ تبْخَسهُمْ أشياءَهم ، فناوله اليهودىُّ ثلاثة دنانير ، فقال :

قلتُ لَكَ لا تسخَرْ من الناسِ ولا تبْخَسْهم أشياءَهم ، ولنْ أرضى بهذهِ الثلاثةِ ثمناً للسَّمكة ؛ فزادَها اليهودىُّ إلى خمسة دنانير ، فأخذها خليفة ومضَى فرحاً بها ، وجعَلَ يقلّبها فى يديه ، ويقول :

أصبَحتُ أغنى من خليفة بغداد ، فليسَ معه من المالِ مِثل ما مَعِى ؛ حتى أوشك أَن يخرج من السوق ، ثم تذكر وصية القردفرجع مسرعاً ورمى بالدنانير الخمسةَ بين يديه ، فقال اليهودىُّ : ماذا تحب يا خليفة ؟ أتُحب أن أُبدِّل بالذّهب دراهم ؟

فقال : لا أُحبُّ دراهم ولا دنانير ، ولكنِّى أريد سمكتى .

فغضِب اليهودىُّ ، وقال : كيف تأتينى بِسَمكةٍ لا تساوى ديناراً واحدا ، فأُعطيك ثمنها خمسة دنانير ولا ترضى ؟! ما هذا فعلُ صيادٍ عاقل أَخْبِرْنى : كَمْ دينارا تحبُّ أن تكون ثمناً لسَمكتك ؟

فقال : لا أريدُ أنْ أَبيعهَا بذهبٍ ولا فضة ، ولا أُريدُ ثمناً لها إلا كلمتين اثنتين .

فغضب اليهودىُّ وقال : يا للَفظاعةِ ! ! أتريد أن أُفارق دينى الذى وجدتُ عليه آبائى من أجل سمكَتكَ ، ثم أمرَ غلمانه أن يضربوه فما زالوا

يضربونه حتى أمرهم بالكف عنه ، ثمَّ قال له : أي ثمنٍ تقترحُه ثمناً لهذه السمكة فإني مُعطيكه لأنك لم تنل منّا إلا الضربَ والأذى .

فقال خليفة : لا تخفْ ولا تفرحْ ، فإني أحتملُ من الضرب ما يحتمله عشرةُ حمير .

فضحكَ اليهوديُّ وقال : لا تتعبْني وتتعبْ نفسك معي ، فأيّ شيءٍ تريده ثمناً ؟

فقال : كلمتان .

فقال : لعلك تريدُ أن أسلم ؟!

فقال لا : لاَ ، لأنّ إسلامَك لا ينفَعُ المسلمين ، ولا يضرُّ الكفار ؟ كما أن كفرَك لا ينفعُ الكفار ولا يضر المسلمين ؛ ولكنى أطلبُ إليك أن تنهض قائماً وتقول : اشهدوا يا أهل السّوق أنى قد بدّلتُ قِرْد خليفة بقردى ، وبختَه ببختى ، فقال اليهودى : ذلك هيّنٌ علينا ، وليتك أخبرتنا به قبل ضربك . ثم انتصب قائماً وقال ما اقترحه عليه خليفة ، ثم سأله : هلْ بقى لك شيءٌ عندى بعد هذا ؟

فقال : لا .

فقال اليهوديُّ : مع ألف سلامة .

ترك خليفةُ اليهوديّ وذهب إلى نهر دجلة ، وألْقى فيه شبكتَه ، فخرجت تحمل إليه كثيراً من أنواع السمك ؛ وفى الحالِ أُقبل عليه الحرفاء والزبائن واشتروا ما معه من السمك بعشرة دنانير ، واستمر عشرة أيام على هذه

الحال يَبيعُ كل يوم ما يَصيدُه من سمك بعشرة دنانير . حتى جمع من ذلك فى تلك المدّة مائة دينار . كان حريصاً على ادخارها ، وعدمِ إنفاق شىء منها ، مخافة أن يظهر عليه اليسارُ دفعةً واحدةً

وذاتَ ليلةٍ قال فى نفسه وهو فى بيته : لقدْ جمعتُ الآن من صيد السمكِ مائةَ دينار ، ولا بُدَّ أن يتحدّث الناس فى ذلك ، وربما وصل هذا الخبر إلى هارون الرشيد ، فيسألنى أن أُقْرِضَه المائةَ الدينار فَأَكْذِبَ عليه وأُنْكِر مِلكها ، فيأمُرَ واليَه أن يوجِعَنى ضرباً حتى أعترف بها وأُحضرها إليه ، وتِلْك ورْطةٌ ليسَ وراءها إلا الخسارةُ والأَذى ؛ والرأى السليم عندى أن أقوم الآن فأتدرّب على الضرْب وتحمّلِه؛ ثم تجرد من ثيابه ، وأمسكَ سَوْطَه بيَدِه ، وجعل يضرب نفسه ضَرْبة ، ويضرب مخدَّة من جلدٍ كانت عنده ضربة ، وهو فى أثناء ذلك يصيح قائلاً : آه ، آه ، واللهِ إنى فَقير ، ولا أملك شيئاً ، وما بَلغك إلا محض الكذب والافتراء : وكان لهذا الصياح صَدًى ودَوِىّ فى سكُون الليل ، فَظن الناس أن جماعةً من اللصوصِ هجمُوا على خليفة فى منزله ، وهم الآن يؤذونهُ ويحُاولون نهبَه ، وهو يستغيثُ ويطلبُ النجدةَ بِصياحه هذا الذى أَزْعَج الليل وسكونه ؛ ثمَّ خفوا مسرعين إلى بيته لإنقاذه فوجدوه مُقفلاً ، فوصلوا إليه من سطح منزله ، فوجدوه قد تجرّد من ثيابه ، وأنه هو الذى يضربُ نفْسَه ، فسألُوا عمَّا دعاه إلى أن يفعل ذلك ، فحكى لهم ما حدَّثتْه به نفسه ، فَضحكوا وعجبُوا ، وقالوا : خيبتُك فى عَقلِك :

أعظم من خيبتك فى مالِك ، ولقدْ أَقلقْتَ راحتنا ، وأَزعجت هدوءنا ، وإيَّاكَ أَن تعودَ إلى مثل هذا ، ثم انصرفوا ونام هو بيته إلى الصباح .

ولمّا استيقظَ فكَّر فى أمر المائة الدينار ، فقال : إنْ تركتُها فى البيت فربما سُرقت فى غيبتى ، وأرى أن أضعها فى جيب جبّتى هذه البالية الممزقة ، التى ألبسُها فى أثناءِ الصَّيد ، وحينئذٍ لا يَظنُّ أحدٌ أنها تحملُ مالاً ، وكذلك فعل ،

ثم أخذ قفتّه وعصاهُ وشبَكته ومشى إلى نهر دجلة ؛ وهُناكَ جعلَ يُلقى شبكتَه ، ويُخرجُها دون أن تحمل له شيئاً ؛ وبعد كلّ مرةٍ ينتقلُ من مكانٍ إلى آخر حتى بعد عن المدينة مسيرة نصفِ يوم ، وهو لا يزال فى خيبته وحرمانه ؛ فضاق صدرُهُ ، وقال فى نفسه : أُلقى شبكتى للمرَّة الأخيرة ، وسَواءٌ عَلَىَّ أحملتْ إلىَّ شيئاً أم لم تحمل ، فإنى عائدٌ إلى المدينة بعدها ؛ وبقوّةِ الغاضب الثائر اليائِس ألقى شبكته ، فطارت صُرّة الدنانير من جيبهِ إلى النهر من شدة حركته ، فأخرج فى الحال الشبكة ونزع عنه ثيابه ، ونزلَ فى النهر يجرى وراءَ الصُّرة التى حملها التيارُ وسارَ بها فى مجراه ، تاركا على الشاطئ ثيابهُ وقفّته وعصاهُ وشبكته ، وعَبثاً حاولَ أن يعثر على صرّة دنانيره ، فرجَع خائباً حزيناً . فما وجدَ إلا العصا والقُفة والشبكة ؛ أما جبتُه فلَم يجد لها أثراً ، فتلفّع بحُزنه وخَيْبته وشبكته ووَضع على رأسه قفته وجعل يسير على غير هُدًى

أما هارون الرشيدُ فقد كان ابنُ القرناص تاجره وصاحبه . وكانَ

لا يباع شيء في المدينة من بضاعة أو مماليك وجوار إلا عُرض عليه قبل بيعه . فبينما هو جالس في دكانه إذ أقبل عليه أحدُ الدلالين ، ومعه جاريةٌ تسمى قوتَ القلوب ، لم ترَ عينٌ مثلَها حُسْناً وجمالا ، ولمْ يسبقها أَحَدٌ في ثقافتها ومعرفتها العلومَ والفنون ، والآداب ، والغناء ، والضرب على آلاتِ الطرب ، فاشتراها ابن القرناص بخمسة آلاف دينار ، وكساها بألف دينار ، وذهب بها إلى الخليفة هارون الرشيد ، فباتت عنده ليلة ، عَرف فيها مبلغَ ما عليه الجارية من العلم والمعرفة ، وذلك أنّها اختُبرت في مجلسه فكانت سبَّاقةً لا يُشق لها غُبار .

وفي الصباح أمر الخليفةُ أن يحضر إليه ابن قرناصٍ ، فلما حضرَ نَقَده عشرة آلافٍ دينار ثمناً للجارية ، وقد ملكت عليه قلبه ، حتى أنه أغفل من عَداها من جواريه ونسائه ، وحَبَس نفسَه في قصرها لا يَبرحُهُ إلاَّ لصلاة الجمعة مدة شهرٍ كامل ، حتى عظُم ذلك على أُولي الشأنِ من أرباب الدولة . وشكوْا إلى جعفر كبير وزرائه .

انتظر جعفرٌ حتى اجتمعَ به في المسجد الجامع يوم الجمعة ، فجعل يَقصُّ عليه من نوادر العشقِ حتى قال الخليفة : لقدْ وقعتُ فيما وَقعَ فيه العشاق وأَصْبحْتُ منه في وَرطةٍ قاسيةٍ لا أدرِي لي مَخْلَصا منها .

فقال جعفر : امتلاكُ الشيء يقلّل الرَّغبةَ فيه ويطفئُ لهيب الشَّغَف به ، وليس للملوك من وسائل المرح واللهوِ أكرمُ من الصيدِ والقنص ، فلا بأس أن يكون لأمير المؤمنين من ذلك كلّ يومٍ حظ وفير ، وربما

كان هذا من عوامل السُّلوّ ، والقهر من إلحاح الرغبة والهوى .

فقال الخليفة : ذلك حسنٌ ، ولنمض إلى الصيد بعد صلاة الجمعة .

سارَ العسكر والبرامكةُ أمام الخليفة وجعفر وزيره إلى البريّة ، وكانا راكبين بغلتين ، فشغلهما الحديثُ في بعض الأمور عن الجدّ في السير وانقطعا عن العسكر ، وأحسّ الرشيدُ إذ ذاكَ عطَشاً شديداً ، فنظر حواليه فرأى على كومةٍ عاليةٍ شبحاً ، فقال لوزيره : هل ترى ما أراه الآن ؟

فقال : نعم ، أرى شبحاً على كومة عالية ، قد يكون لحارس بستان ، أو حارسِ مزرعةِ لِقثّاء ، وأغلب الظنّ أنه في مكان لا يخلو من ماء ، فإنْ أذِن الخليفة ذهبت إليه ، وأحضرت الماء لتشرب هنيئاً :

فقال : الرشيد بَغلتي أسرع من بَغلتك ، فقفْ أنت هنا حتى تكون على مرأى من العسكر إلى أن أذهب إليه فأشرب فأعود سريعاً . وغمزَ الرشيدُ بغلته ، فانطلقتْ كالسهم مسرعة ، وما هي إلا برهةٌ عاجلةٌ حتى كان عند الشّبح والكومة العالية ، وكان ذلك الشبحُ خليفة الصياد ، جلسَ متلفعاً بشبكته ، ليسترُ بها جِسمَه ، تبدو عليه آثار التعب والغم العظيم ، فسلَّمَ الرشيدُ عليه ، فردّ عليه تحيَّته ، ثم سأله الرشيد : هل عندك بعض من الماء ؟

فأجابه : رحم الله أهل النظر والبصيرة ، يُخيَّل إليّ أنك أعمى أو غبيّ ، إن الماء في نهر دجلة ، خلف هذه الكومة ، فأسرع الرشيد إليه وشرب

من مائه وسَقى بغلته ، ثم رجَع إلى الصيادِ فسأله : ما شأنك أيها الرجل ؟ وما صنعتك ؟

فقال : ورحم الله أهل النظر والبصيرة أيضاً، فهذا أغرب من سؤالك عن الماء أما ترى آلة صنعتى متلفعاً بها ؟!

فقال الخليفة : كأنى بك صياد ؟

فقال نعم .

فسأله : وأين جُبتك وشملتُك وثيابك وحزامك ؟

فظنَّ خليفة أنه هو الذى سرق جبته وقام إليه مُمْسكا لجام بغلته وقال : هاتِ جُبَّتى واترك هذا المزاح .

فقال الرشيد : والله ما رأيتُ لك ثياباً ، ولا أخذت لك شيئاً .

فقال لا أظنك إلا مغنياً أو زامراً تمزح كثيراً ، فهات ثيابى بالتى هى أحسنُ ، وإلا ضربتك بهذه العصا حتى تبول رعباً وألماً .

فخاف الرشيد ، وقال فى نفسه : والله لا أحتملُ ضرْبة واحدة بهذه العصا ، ثم نزع عنه قباءه وقال :

خذ هذا عوضا عن ثيابك ، وكان من الأطلس ، فجعل يقلبه وينظر فيه ثم قال إن جبتى تساوى عشرة أمثال هذا .

فقال الرشيد : البسهُ حتى أحضرها .

فلما لبسه وجده طويلًا فنزع سكيناً مربوطةً إلى أُذُن قُفته وقطع من أسفل القباء مقدار ثلث طوله ، حتى صار إلى تحت ركْبتيه إذا ما لبسه



ثم التفت إليه ، وقال :

يالله أيها الزامر ، أخبرنى عن مقدار ما تكْسبهُ كلّ شهر من زمرك .

فقال : عشرة دنانير .

فقال الصيادُ : مسكين أيها الزامر ، إن مقدار ما تكسبه كل شهر أكسبه فى اليوم الواحد ، فهل ترغب أن تكونَ فى خدمتى ، وَأعلمكَ الصيد ، على أن تقاسِمَنى الدنانير العشرة كل يوم ، فتأخذ منها خمسة ، وآخذ منها خمسة ؟

فقال الرشيدُ : رضيتُ بذلك .

فقال الصياد : انزل عن بغلتِكَ وقيِّدها ، فإنها تنفعُنا فى حملِ ما نصيدُ من السمك ونقلِه ، وتعالَ معى أُعلِّمْكَ الصيدَ هذه الساعة .

ولما كانا عنْد دجْلةَ أَمرهُ أنْ يُشَمِّر عن ساعديه وساقَيْه ، وعلّمه كيفَ يحملُ الشبكةَ على ذراعيْه ، وكيف يُلقيها فى النهر ، ففعل الرشيدُ كما علّمه ، وجرّ الشبكةَ بعدَ أن ألقاها فى النهر ، فلم يستطع أن يحرِّكها من مكانِها ، فساعده خليفةُ فى إخراجها فلم تطاوعْهما .

فقال الصياد :

لقد أخذتُ قباءكَ فى جبّتى ، وسآخذ بغلتِك فى شبكَتى إنْ مُزّقَ شىءٌ منها ، وسأضربُكَ بعصاى ضرباً مُوجعاً .

فقال الرشيد : نستعينُ باللهِ ، ونُعيدُ جرّها معاً ، ففَعَلا ؛ وبعد تعب

ومشقّةٍ كانت الشبكةُ مملوءة بأنواع السمك أمامهما على الشاطىء ، ففرحَ خليفة ، وقال للرشيد :

إنك زامرٌ قبيح ، ولكن سيكون لك مستقبلٌ ناجحٌ فى صَيد السمك ؛ فاركب بغلتك وأحضِر لنا من السوق قفّتين كبيرتين ، لننْقُل هــذا السمك فيهما إلى السوق حيث نبيعه ، ونقبضُ ثمنه ، الذى يبلغ عشرة دنانير .

فقال الرشيد : سمعاً وطاعة .

وفرّ ببغلته وهو يضحكُ إلى جعفر ، وكان لا يزالُ فى مكانه ينتظر ، فقال للرشيد :

لعلّكَ وجدتَ بستاناً فحَبَسكَ جمالُه هذا الوقت الطويل ؟!

فضحكَ الرشيد وأغرَقَ فى الضحك حتى أَمسك على بطنه ، وكان مع جعفر جماعةٌ من البرامكة رجعوا إليه من العسكرِ يسألون عن الرشيد وغيبته ، فقالوا له :

وما سببُ تأخُّرك هذه المدة الطويلة ، حينَ ذهبتَ تطلبُ الماء لتشرب ؟!

فقص عليهم قصته ، ولم يترك منها شيئاً ، فضرب جعفر كفًّا بكف وقال :

ضاعَ منّى القَباء ، لقد كنت عازماً أن أطلبُ هذا القَباء لنفسى ، ولو لم يتلفه الصياد بتقْصيره لاشتريتُه منه .

فقال الرشيد : لَيْتَ الأمر وقف عند تلفِ القباء ، لقد تعبتُ فى صَيد السمك ، وخَفّفَ عنّى هذا التعب أن كانَ سمكاً ما أجمله وإنَّ أية سمكةٍ تأتيني منه أدفع ثمنها ديناراً ذهباً .

فنادَى مُنادٍ فى العسكر أن اشتروا سمكاً لأمير المؤمنين ، فانطلقَ المماليك كالجراد إلى نهر دجْلة وجَعلوا يشترون ، حتى باع الصياد السمك بعشرين ديناراً ، وبقيتْ معهُ سمكتان ، فأمسكَ إحداهما بيده اليمنى ، وأمسكَ الثانية بيده اليسرى ، ونزل فى النهر إلى عنقه وقال :

يا ربّ ، بحق البيت الحرام أن تحضِر شريكى الزامر هذه الساعة ، حتى يأخذ من ثمن السمك نصيبه . وإذا بعبْدٍ من عبيد الخليفة قد حضر ، وكان المقدَّم فيهم ، فقال :

بعْنى يا صيادُ ما معك من السمكِ ، فقال :

ليس معى سَمَكٌ للبيع ، فامْضِ إلى سبيلك ، ولا تكن ثرثارًا .

فرفع العبد يده بالدبّوسِ يريدُ ضربه ، فخاف الصياد ، وقال :

لا تُعَجِّل بالأذى ، فإن المعروف خيرٌ وأبقى ، ثم رمى إليه السمكتين ، فوضعهما العبْدُ فى منديله ، وقال :

إذا كان الغدُ فاذْهَب إلى دار الخلافة ، واسأل عن العبد صَنْدل ، لأعطيَك ثمن السمكتين ، ثم تمضى لشأنك ، إذ ليسَ معى نقود الآن .

فقال الصياد :

أرِنا قفاكَ ، وغدًا يفعلُ الله ما يَشاء .



خرج الصياد من النهر وقال :

الحمد لله ، هذا رزقنا ما لهُ من نفاد؛ ثم عاد مُسرعاً إلى داره في بغداد فعجبَ كلُّ مَن رآه فيها ، إذ عرفوا عليه قَباء الخليفة ، وكان أشدَّهم عجباً خيَّاط الرشيد الذي صنعهُ وخاطهُ ، فلما مرَّ بهِ سأله :

من أين لكَ هذا القباء يا خليفة ؟

فقال : من رجُل علَّمته الصيدَ فأصبح تلميذي وأنا مُعلِّمه ، وكان قد سَرقَ جُبَّتي فأعطاني هذا القَباء عِوَضاً ، وعفوت عنه ؛ فعرفَ الخيَّاط أن الخليفة قابله ومَزَحَ معه ، وأعطاه في النهاية قباءه ، ثم ذهبَ الصياد إلى بيته .

(٣)

كانت السيدةُ زبيدة قد أخذتها الغَيْرة من قوت القلوب ، وهُيام الرشيد بها ، فانتهزت غيبةَ الرشيد في الصيد ودبَّرتْ مكيدة للتَّخلص منها ؛ فماذا فعلتْ ؟

أمرَت السيدة زبيدةُ جواريها أن يُعْدِدنَ طَعاماً فاخراً ، جمعَ من ألوان الأطعمةِ أغلاها وأشهاها .

ثم وضعتْ في صَحْفةٍ واحدة للحلْوى بِنْجًا ، وبعثَتْ في طلب الجارية قوت القلوب ، وقيل لها :

إنَّ السيدة زبيدة ، زوجُ أمير المؤمنين، شَربتْ اليوم دواء ، ورغِبَتْ أن تُسَرَّى عنها بما تسمعهُ من غنائكِ الشَّهي ، وإيقاعك الجميل .

فقالت : أنا فى خدمة سيِّدتى وزوج سَيِّدى أمير المؤمنين ، فسمعاً وطاعة — ولم تكن تعلم ما تُضْمِرُه لها الأيام .

ولما كانت أمام السيدة زبيدة سلمتْ قائلة :

السّلام على السّتر الرفيع ، والجناب المنيع ، والسُّلالةِ العباسيَّة الكريمة ، والبضْعةِ النبوية الشريفة ؛ أدامَ الله أيامك مقرونةً باليُمْن والسعادةِ ؛ ثم مكثَت واقفةً مع الجوارى منتظِرة أمرَ سيِّدتها .

ونظرت اليها السيدة زبيدة ، فوَجدتها أَسيلة الخدَّين ، حَوراء العيْنين رمّانيَّة النهدَين ، ذات جبين زاهر ، وجَفْن سقيم فاتر ، وشعر مرسل طويل ، كأنه الليل ، وثغر كأنهُ اللؤلؤ والمرجان ، ثم قالت :

وعليكِ السلام ، أهلاً ومرحباً بقوت القلوب ، اجْلسى وغنِّى .

فجلستْ ، وتناوَلتْ عودها ، فشدَّت أوتاره ، وعركَتْ آذانه ، وضمَّتْهُ إلى صدرها ؛ ثم ضربَتْ وغنّتْ فأعجبتْ وأَطْربتْ ، وقامتْ بين يدى السيدة زبيدة فلَعبَتْ بالشعوذةِ وغيرها من كل فنٍّ غريب ، حتى كادت تعشَقُها ، وتعذر الرشيد فى عشقِه إيّاها .

ثم استَأذَنتْ وقعدَت ، فقُدِّم لها الطعامُ وفيه البَنْج ، فلما شبِعت غابَ وعيها ، وسقطَتْ مغشيًّا عليها .

فأمَرَت السيدة زبيدة أن تُحمل وتودَع فى مقصورةٍ من مقصورات القصر حتى تطلبها ، فأُودِعَت حيثُ شاءت ، ثم أمَرَت أن يُصنع صُندوق

خشبي على قدِّها ، وأن يُبنى قبرٌ لها ، وأن يُعلنوا نبأ وفاتِها ، بغُصَّةٍ وشَرْقةٍ معاً ، وأنذرت بالقتل مَن يقولُ عنها غير ذلك .

ولما رجَع الخليفة سأل عن قوت القلوب ، فقيل إنها غُصَّتْ بالطعام ، فمَاتت ، ودُفنت ، فوقفَ على قبرها وقفة طويلة حزينة ، ثم انصرفَ إلى غرفة راحتِه .

فأيقنت السيدة زُبيدة أن تدبيرها قد نجحَ ، فأمرَتْ أن توضع قوت القلوب في الصندوق الخشبيّ ، وأن يُباع في السوق مُقفلا ويُتَصدَّق بثمنه .

أما خليفة الصياد ، فإنه ذهبَ في موعدِه إلى دار الخليفة ، وطلب لقاء المملوك صنْدَل ، فلما جاءه قال له :

جديرٌ بالأمين الوفيّ أن يصدُق الناسَ وَعْدَه .

فقال صندل : ذلكَ حقٌ . تفضَّلْ ، واجْلس هنا على هذا الكرسيّ ، حتى أحضرَ لكَ ثمن السمك ، ولكن جعفراً كان قادِماً من عند الخليفة ، فرأى الصياد جالساً وهو على حالةٍ تلفِتُ النظر ، وتبعث على التساؤُل ؛ فسأل عنه العبد صندلا ، فقال : أَلا تعرفُ هذا يا سَيِّدى الوزير ؟

فقال : وكيف أعرفه ، ولم أَرَه إلا هذه الساعة ؟

فقال : هذا خليفة الصياد ، الذى اشترينا سَمكه لأَمير المؤمنين ، جاءنى لأُعطِيَه ثمن السمك الذى اشتريته منه .

فابتسم جعفر وقال : أَلستَ أَنتَ تعرفهُ ؟ !

فقال : لا أعرفُ إلا أنه خليفة الصياد ، وقد جاء ليأخذ ثمن سمكه .

فقال جَعفَر : هذا مُعلِّمُ أمير المؤمنين وشَريكُه ، والحمدُ للهِ الذى جاءنا فى وقتِ الحاجة إليه ، فإن أمير المؤمنينَ فى حُزن عميق ، وهُو فى حاجةٍ إلى مَنْ يُسَلِّيه ، فلا تُمكِّنْه من الرواحِ حتى أستأذنَ فى أمْرِه أمير المؤمنين.

فأمرَ صندل المماليكَ أنْ يقبضُوا عليه ، ولا يمكنوه من الفرار ؛ فأخذوه وحبسُوه ، فعجِب من ذلك ، وقال : الحمدُ للهِ الذى لا يُحمَدُ عَلَى مكروه سواه ، أصبحَ الطالبُ مطلوباً ، وصاحبُ الحقّ محبوساً ، فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله .

ورجعَ جعفرُ إلى الخليفة فوجده مُطرقاً ، فسلّمَ ، وقال : أيأذن لى أميرُ المؤمنينَ أنْ أتكلم وليسَ علىّ منْ حرج .

فقال : ومتى كان عليك حرجٌ وأنت كبيرُ الوزراء ؟ ! تكلم عما تشاء .

فقال : خرجتُ الآن منْ عندك فوجدتُ بباب قصرك مُعلمَكَ وشريكَك خليفة الصياد يقُول : علمتُه الصيدَ ، وأرْسلتُه ليُحضرَ لى قفّتين ، فلم يرجعْ ، فأينَ حُرمةُ المعلِّم ، وإخلاصُ الشُّركاء ؟ ! فإن لم يكن لك غرضٌ فى شركتِه فأخبرهُ حتى يبحث له عن شريكٍ غيرك .

فتبسّم الخليفةُ ضاحكا ، وقال : أحقّ هذا الذى تقول ؟ ؟

فقال : وحياةِ أمير المؤمنين ، إن خليفة الصياد ببابك .

فقال الخليفة : سأقضى لهذا الصياد ما يُريده له القضاء ، من سعادة أو شقاء ، ثم أمر أن يُمَدّ ورق صغير ، وأن يُكتبَ فى كل ورقة نصيبٌ

من المال، من عشرين ديناراً إلى ألفِ دينار؛ وأنْ تُوزّعَ مراتبُ الدولة فى ورق آخر، من أقلِّ منزلةٍ إلى الخلافة؛ وأن يكتب فى ورق آخر أيضاً عشرونَ صنفاً من أصنافِ العِقاب، من أقلّ تعزير إلى القتل؛ ثم قال: سآمُره أن يأخذ ورقة واحدةً من هذه الأوراقِ بعد خلْطِها فى كيسٍ، وسأقضِى له بما هو فى الورقةِ التى تخرجُها من الكيسِ يَدُه، ولو كان فيها الخلافة، أو كان فيها قتلُه؛ فاذهبْ وائتِنى به؛ فذهبَ إليه وهو يقُول فى نفسه: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، لقدْ كنتُ سبباً فى مصيرٍ محتوم، ولا أَدرى أهو شرٌّ فأندم، أم هو خيرٌ فأَغنم؟! ولا بدّ من طاعةِ أمير المؤمنين، وتنفيذِ حكمه؛ فلأُحضرْهُ، ولتكنْ إرادةُ الله تعالى.

وأمسك جعفرٌ يدَ الصياد، وسارَ به، والعبيدُ من خلفِه وقُدّامه، فدهش، وقال فى نفسه؛ ماذا فعلتُ فى يومى هذا حتى أصبحتُ كالأسير؟! وماذا هُم فاعلون؟! اللهم إنى أسلمتُ أمرى إليكَ فادفع السُّوءَ عنى، ونجّنى من القوم الظالمين.

ودخل به جعفرٌ على الخليفةِ وهو جالسٌ على سَرير مُلكه، يتلألأُ ذهبُه، وتَبْرُقُ جواهرُه، وأمامه البُسُط السندُسيّة، تجعلُ الداخل يخشَى أن تطأها قَدَمُه، ومن حوليه كراسىّ تُلقى فى النفس هَيْبةً وجَلالا؛ وقد اصطفّ الحرسُ مُدَجّجين بالسلاح أمام غرفتهِ يميناً وشمالا، فلما رآه الصيادُ قال: أهلاً بالزّامر، وكيف تتركنى على نهرِ دجْلةَ بعدَ أنْ علمتك الصيدَ، وأصبحتَ غُلامى وشريكى؟!

لقدْ كنتَ سبباً في خسارتنا ، و بيع السمك بثمن بخسٍ ، فقد نهبهُ المماليكُ ، ولم يدفعوا إلا ثمناً يسيرًا ؛ ولو أحضرتَ القفتين لبعنا السمك في بغداد بمائةِ دينار ؛ وقد جئت الآن أطلبُ بقية ثمن السمك فقبضُوا عَلَيّ وحبسونى ، وأنت ، مَنْ حَبَسَكَ في هذا المكانَ ؟

فتبسم الخليفة . وقال : تقدَّمُ وخُذْ لك ورقةً من أوْراق هذا الكيس؟

فقال الصياد : كنتَ بالأمسِ صياداً ، وأراكَ اليومَ مُنَجِّماً ؛ أما علمت أن من كَثرتْ صناعاتُه ، عظُم فقْرُه ، وساءتْ حالهُ ؟ !

فقال جعفر : خُذْ الورقة بسرعةٍ ، وأطعْ أميرَ المؤمنين .

فأخذَ الصيادُ ورقةً من الكيس ، وهو يقولُ : هيْهاتَ أن يعود غلاماً لى ، ويصطاد معى ؛ خذْ يا زمارُ هذه الورقة فاقرأها ولا تُخْفِ منها شيئاً .

فقال الخليفةُ : خذْ منهُ الورقةَ يا جعفر ، وأسمعهُ جميعَ ما فيها ، فنظر إليها ، ثم قال : يُضربُ الصّيادُ مائة ضربةٍ بالعصا ، فقال الخليفة : اضربوه ولا تُبطئُوا ؛ فأخذوه في غير رحمةٍ ولا شفقة ، وطرحوه أرضاً ، وضربوه مائة عصا ؛ وكان كلما ألهبه الضرب صاح : واغوثاه يا ربَّاه ! الغلامُ يأمر بضرب معلمه ! إن هذا مزاح ثقيل !

ولما ضُرِبَ قال : ما أتعسَ حظى هذا اليومَ إنْ لم يكُن ذلكَ مُزاحاً من غلامى الزمّار ! ثم قال جعفر : يا أميرَ المؤمنين ، قَدِمَ هذا المسكينُ إلى بحر كرَمِكُم ، ولا يرضيكم أنْ يعود عطشان ، فإذا أمر الخليفةُ أن يأخذ ورقةً أخرى ، فلعلّهُ ينالُ بها شيئاً من المال يعينهُ في فقْره ؟ ! !

وقال الرسيد : أَلا تخشى أن يكون حظّه فيها القتل ، فتكون سببًا فى هلاكه ؟ !

فقال جعفر : إن كانَ حظهُ القتل فقد استَراح .

فقال الصياد : لا بشّرك الله بالخير ، أَضاقتْ بغدادُ بخليفة الصياد ، حتى تطلبوا قتله ؟ !

فقال جعفر : استخِر الله وخذْ ورقة ؛ فمد يده وأخذ ورقة ؛ فلما ناولها جعفرًا قرأها فى نفسه وسكت ؛ فقال الخليفةُ : ما أسكتك يا جعفر ؟

فقال : قرأتُ بالورقة : لا يُعطى شيئًا .

فقال الرشيد : مُرْهُ يفارقنا فليس له رزق عندنا .

فقال جعفر : بحقّ آبائك أن تأمُرَه يأخذ ورقة ثالثةً ، فعسى أن نجد له فيها خيرا .

فأمر بأخذ الثالثةِ فوجدوا فيها : يُعطى الصيادُ دينارًا واحدا .

فقال جعفرٌ للصياد : أردنا لك السعادة والغنى ، ولكن الله لم يرد لك إلا هذا الدينار .

فقال الصياد : الحمد لله ، هذا خيرٌ كثير ، كل مائة ضربةٍ بالعصا بدينارٍ واحدٍ ، لا أصحّ الله لكَ بدنًا ، فضحك الخليفةُ وقال : أعطُوه الدينارَ وخلُّوا سبيله .

فلما وَصل الصياد إلى الباب رآه صندل فناداه ؛ وقال له : أَعطنى شيئًا مما أَعطاك أميرُ المؤمنين وهو يمزح معك .

فقال : أعطانى مائة ضربةٍ بالعصا وديناراً واحداً ، أما الضربُ فلا أستطيعُ قسمتَه ، وأما الدينارُ فهو حلٌّ لكَ ، ورماه فى وجههِ وخَرجَ غاضباً ، فحزِن صندلٌ من أجْلهِ ، وأمَرَ الغلمانَ أن يرُدُّوه .

فلما رجع ناوله الدينارَ وكيساً به مائة دينار ؛ وقال : هذا دينارُكَ الذى أخذته من الخليفة ، أما هذا الكيسُ وما فيه فهو ثمن ما اشتريته مِنْك من السَّمَك ؛ ففرحَ الصيادُ وخَرجَ ناسياً ما أصابه من ضربٍ .

وبينما هو مارٌّ فى طريقه إلى بيته بسُوق الجوارى — وجَدَ جَمْعاً من الناس يحيطون بشَيْخٍ قائمٍ ، أمامه صُنْدُوقٌ مُقْفَل ، وعليه خادمٌ ، والشيخُ ينادى: يا تُجّار ، يا أربابَ الحظوظ والأموال ، هذا صندوقٌ مقفلٌ من دارِ السيدة زبيدة زوج أمير المؤمنين . فتقدمَ تاجرٌ وقال : أشْتَريه بعشرين ديناراً ؛ وقال آخرُ : بثلاثين ديناراً ؛ وهكذا حتى وصَلَ ثمنُه مائة دينار .

ثم جعل الشيخُ ينادى هلْ عندكم زيادة ؟ فقال خليفة الصياد : أشتريه بمائة دينار ودينار .

فقال الشيخ بارك الله لك فيهِ ، فتسلَّمَ الصندوق ، ودفعَ الثمن ، ووقّعت المعاقَدَة ، وتصدَّق الشيخُ بثمنهِ ، وهو لم يبرحْ مكانَه ، ثم رجع وحكى للسيدة زبيدة ما حصل ، ففرِحت واطمأنتْ .

أما الصياد فقد حملَ الصُّندوق على رأسهِ ، ومشى فى تعبٍ وإعياء حتى دخل بيته .

ثم أخذ يُعالجُ فتحه فلم يَسْتَطِعْ ؛ فقال فى نفسه : أَيْنَ كان عقلى حين اشتريتُ هـذا الصندوقَ بما أملكُ من دنانير ؟ ! وكيف أشترى شيئاً مجهولا بهذا الثمن الباهظ من الدنانير ؟ !

وقام إلى الصندوقِ ثانيةَ يعالجُ فتحه فلم يقدر ؛ وكان الليلُ قد أقبل فأرجأ فتحهُ إلى الصباح ، ونام فوق الصندوق ، وقبل أن يستغرقَ فى نومه أحسّ حركة فى الصندوق تحته ، فقام فزعاً وقال : ماذا فى الصندوق ؟ أخشى أن يكون قد حوى عفاريت ، أحمدُ اللهَ الذى ما جعلنى أفتحهُ فى الظلام ولوْ فتحتُه لخرجوا منه وأهلكونى أو ضربونى .

ثمّ نَفَحَتْهُ نسمة من الاطْمئنان ، وقال لعلها حركةٌ لا أثر لها ولا قيمة ولأَنَمْ فوقه حتى الصباح .

ولكنه ما كاد يرقُدُ حتى سمع حركة أقوى من الحركة الأولى وأطول ، فأيقن أن فى الصّندوق شيئاً يتحرّك ، ولا بد أن يضىء البيت ويفتحه : ولكنه لم يجد عنده مصباحا ، وليس معه نقودٌ يشترى بها مصباحا ، فخرج إلى الحارة وصاح : يا أهل الحارة ! فانتبهوا على صياحه ، وسألوه : ما شأنك يا خليفة ؟ ! وما تريد ؟ ! فقال : أعطونى مصباحا أضىء به دارى ، فإن الجنّ والعفاريتَ أزعجونى ، وطردُوا النَّوم عن جفونى ، فضحكوا من قوله وأعطوه المصباح .

فدخل إلى الصندوق وكسر قُفله ، فانفتح ، ووجد به جاريةً

كأنّها القمر وضاءةً وحُسناً ، وما كاد يخرجُها من الصندوق حتى تثاءبت ، وأفاقتْ من غشيتها ، فقال :

من أنت أيتُها الجارية ؟

فقالت : ألستُ في قصر الخليفة هارون الرشيد ؟!

فقال : أنت في بيت خليفة الصيادِ الفقير الذى لا يملكُ شيئاً ، وما أنت إلاّ جاريتى ، اشتريتك بمائةِ دينار ودينار ، وكنتِ في هذا الصندوق وملأت عَلَىّ الدار خوفاً ورُعْباً قبل أنّ أفتحه ، ولكنّى الآن قد سعد حظى بوجودِك .

فقالتْ : دَعْنا من هذا الكلام ، وأعطِنى شيئاً آكله ، فإنى أحسُّ جوعاً شديداً .

فقال . ليس عندى طعامٌ ، ولا شربة ماء : ولم أذق الزاد منذ يومين .

فقالت : هل معك دراهم ؟

فقال : البركة في هذا الصندوق ، فقد دفعتُ جميعَ ما معى ثمناً له ؛ وأصبحت بسببه فقيراً ، لا أملكُ قليلا ولا كثيرا .

فضحكت الجاريةُ ، وأمرته أن يسألَ جيرانه شيئاً يأكله ، فقام إلى الحارة وصاح : يا أهل الحارة ! فانتبهوا وسألوه : ما لك يا خليفة ؟ فقال : جوعان وأطلبُ شيئاً آكله ؛ فأعطاه هذا رغيفاً ، وهذا قطعة جبنٍ ، وهذا بعض القثاء والخيار ؛ ووضع كل ذلك في حجره ، ودخل به عليها ، وحطّه بين يديها ، وقال : كلى حتى تشبعى ، فضحكت وقالت : أخشى أن أغَصَّ

بلقمةٍ ، وليس عندك ماء فأموت ، فحملَ جرته ، وخرج إلى الحارة ، وصاح يا أهل الحارة ! فقالوا : ماذا جرى لك هذه الليلة يا خليفة ؟ ! فقال : أعطيتمونى طعاماً فأكلتهُ ، وقد عطشت الآن وليس عندى ماء ؛ فنزل إليه كثيرٌ منهم ، هذا بقُلّتِه ، وهذا بإبريقه ، فملأ جرته ودخل بها إلى الجارية ، وقال : لم يبق لك حاجةٌ فكُلِى واشربى ، وحدثينى عن أمرك ، فقالت :

اجلس واستمعْ ؛ أنا قوت القلوب ، جارية هارون الرشيد ، وقدْ فعلتْ بى هذا زوجته السيدة زبيدة ، غَيْرَةً منى ، لأنه كان يحبُّنى حبًّا شديداً ، وذلك لتبعدنى عن قصر الخلافة ، وتستريحَ منى ؛ وسيكون هذا سبباً فى سَعدكَ وغناك ، من الخليفة هارون الرشيد .

فقال : أليس هُو الرشيد الذى كنتُ محبوساً عنده ؟

فقالت : بَلَى .

فقال : ما أبخلَه ، وأقلّ عقله !! لقد كنتُ عنده ، فضربنى بالعصا مائة ضربة ، ومنحنى ديناراً واحداً ، ولكنّ صندلا أحد عَبيده رآنى فأشفق بى ، وأعطانى ثمن السمك كيساً به مائة دينار ؛ اشتريت بها جميعها هذا الصندوق ؛ أما الرشيد فلم أنل على يديه إلا الأذى والضّر ، وقدْ علمته الصيدَ ، وشاركتُه ، فغدر بى وآذانى .

فقالت : دَعْ عنك هذا القول القاسى ، والتزم الأدب فى مخاطبة الملوك ، فإن اللسانَ أكثر إيلاماً من السيف ، وستكونُ ، إن شاء الله ، مقرباً

عند الخليفة ، مَوْفور الحظوة لديه ، غارقاً فى مَعروفه وكرمِه ، وأُوصيك ألاّ تتكلَّم إلا بالقوْلِ الجميلِ الذى يحبِّبك إلى الناس ، ولا يُنفِّر أحداً منك ؛ ولا تخاطب الخليفة إلا بما يليق به من عبارات الأدب والاحترام ، فإنك بهذا تصل إلى ما تريد .

فقال : شكراً لكِ وسمعاً وطاعة ؛ ثم ناما إلى الصباح .

ولما استيْقظا وأدّيا فرض الصبح طلبتْ منه دواةً وقرطاساً ، فكتبت إلى التاجر ابن القرناص ، صاحب الخليفة ، قِصَّتها ، وأنها الآن عند خليفةَ الصيادِ ، ثم قالت : اذهبْ إلى سُوقِ الجواهر ، واسأل عن كبير التجار ابن القرناصِ ، وناوله هذه الورقة ولا تتكلَّم .

فلمّا أتاه سَلَّمَ عليه ، فردَّ سلامه فى احتقارٍ ، وعدمِ حفاوة ؛ فناوَله الورقة ، فأخذها ولمْ يقرأها ، وأمر أحد غلمانه أن يُعطيه دِرْهَما ، لأنه ظَنَّه سائلاً يطلبُ معونة ، فقال الصَّياد : لا حاجة بى إلى المعُونة والصدقة ، ولكنِّى جئْتُ إليك من أجل هذه الورقة ، فاقْرأْها ،

فلما قرأها ، وعرف ما فيها ، قبَّلها ، ووضعها على رأْسِه ، ونهض قائماً وقال : أيْنَ بيتُك يا أخى ؟

فقال : وما تريد ببيتى ؟! أتريد أن تذهب إليه لِتسرق منه جاريتى ؟!

فقال : لاَ ، ولكن لِأشترِىَ لكما طعاماً ، وأُرسلَه إلى البيت .

فقال : البَيت فى حارة . . .

فأمرَ عبدين من عبيده أن يأخذا مَعهُما الصَّيادَ إلَى مُحسنِ الصَّيْرفىِّ ،

ويأمُراه أن يعطيَه ألفَ دينارٍ ، ثم يرجعا به إليه مُسرِعَين .

أَخذَ الصَّيَّاد الألف ، ورجع مع العبدين إلى ابن القرناص ، فوجدَه راكبًا بغلة قيمتُها ألف دينار ، وبجوارها بغلةٌ مِثْلُها أَعدّها لركوب الصياد بَعدَ رجوعه ؛ ولما ركبها الصياد جعل وجهه ناحية ذنبها ، وأمْسكه فقفزت ورمته على الأرضِ ولـكنه لم يصبْ بضرر ؛ فضحكوا وهَنَّأُوه بسلامته ، وتركه ابن القِرْناصِ فى السّوق ، وذهب مسرعًا إلى الخليفة وأخبره ماحصل لقوت القلوب ، ثم رجع ونقلَها إلى بيته .

(٤)

ولمـا رجَع الصَّيَّاد إلى بيتهِ وجَدَ أهل حارته مجتمعين ، وكانوا من قبل يقولون : إنَّ هذه الجارية ستكون سبب شقائهِ وغمِّه ، لعلَّها من أقربائه، ربَّما كانت هاربة من بيت سيدها ، وَربَّما وجَدَها بالأمسِ فى غيبَة سُكْرٍ فَحَمَلَها إلى بيتهِ .

ولمّا رأوه قادِمًا أَقبلوا عليه ، وقالوا : أما علمتَ ما جرى فى بيتِك ؟!

فقال : لم أَعلم شيئًا ، وماذا جرَى ؟

فقالوا : حضرَ هذه الساعةَ جماعةٌ من المماليك فأَخذوا جاريتَك،ومضوا بها إلى سبيلهم ، وبحثوا عنك فلم يجدوكَ .

فقال واحدٌ منهم : ولوْ وجدُوهُ لقتلوه .

فلمْ يلتفتْ إلى أحدٍ منهم ، ولـكنّه رجعَ مسرعًا إلى دكان ابن

القرناص ، فوجدَهُ راكباً بغلته ، فقال له : ما كان يصحُّ أن ترسلَ عبيدك إلى داري ، فيخطفوا جاريتي التي اشتريتُها بمالي .

فقالَ ابن القرناص ، تعالَ معي ، وسترى ما يَسُرُّك ، وتستريح له ؛ وذهب به إلى داره ، وكانت فخمة البناء ، عليها أمارات العظمة والغِنى ، انتصبَتْ كالفَخُورِ المعجب وسط حديقةٍ ذات أشجارٍ وأفنَان ، ووُرُودٍ وأزهار ، تجرى من تحتها الأنهار ، وهُناكَ وجدَ الجارية جالسةً على سرير من ذهب ، ومن حولها وتحت أمرها ، عشرُ جوارٍ كأنهن الحور العين .
فقالتْ لابن القرناص : ماذا فعلتَ بسيِّدِي الجديد الذى نقلني من داره واشترَاني بجميع مالِه .

فقال : هاهُو ذَا ، وحكى لها قِصتَه .

فقالتْ : إذَا كنت قد أَعطيته فِيَّ ألفَ دينارٍ ، فهذِهِ أَلفُ دينار أُخرَى هِبَةً مِنى إليه ، إذْ كانَ سبباً فى إنقاذى ودوام حياتى .

وبينما هُم كذلك إذ أقبلَ رسولُ أميرُ المؤمنين يَطلُبُ قوتَ القلوب أن تذهبَ إليه ، فلمَّا كانت بينَ يديه فرِحَ بها ، وسألها عن حالِ من اشتراها . فقالت : إنَّه خليفةُ الصياد ، وله معَ أمير المؤمنين حسابٌ فى شركة ، وهو واقفٌ الآن بالباب ؛ فأمر الرشيدُ بإحضاره بين يديه ، فلمَّا جاءَ حيَّا فى أدَبٍ ، ودعا له بدوام العزّ والسعادة ، ثم سأله الخليفة :

هَلْ كُنتَ بالأمسِ شريكى ؟

فقالَ له الصيادُ : قِصتى غريبة ، وسَيُسَرُّ لها أميرُ المؤمنين إنْ أَذِنَ لى بقولها .

فقال : اقصُص علينا ما تشاء .

فقصَّ على الخليفة ما جَرى له من أوله إلى آخره ، فأَمرَ له بخمسين ألف دينار ، وخِلعةٍ مُلوكية ، وبغلةٍ ، وعبيدٍ يخدمونه ؛ وأمرَ لهُ بمرتّب شهرىٍّ مقدارُهُ خمسون ديناراً . وجعله بما أفاضَ عليهِ من مالٍ من أعيان الدولة ووَجهائها ؛ وقال : إنّ ما فُعِلَ بالجارية من تَدْبيرِ السيدةِ زبيدَة . فَحَزَّ ذلك فى نفسِ الخليفةِ وغضبَ عليها وهجرها مدَّة ؛ فاغتمت لِذلك وأيقنت أنّها أخطأتْ ، فجعلت تُفكّرُ فى وَسيلةٍ ، تمسحُ بها غضبَ الخليفة وتألمه منها ، فلم تجد إلا أن تكتُبَ إليه معترفةً بذَنبها ، معتذرَةً تائبةً ، ترجُو منه العفو والمغفرة ؛ فلمَّا لمحَ فى كتابها توبةً خالصة قال فى نفسه : إنّ اللّهَ يغفرُ الذنوب جميعاً ، إنه هوَ الغفور الرحيم ؛ وبلَّغها أنه قَبِلَ عُذرَها ورَجاءها ، وعفا عنها ، ففَرِحتْ بذلك فرحاً عظيما .

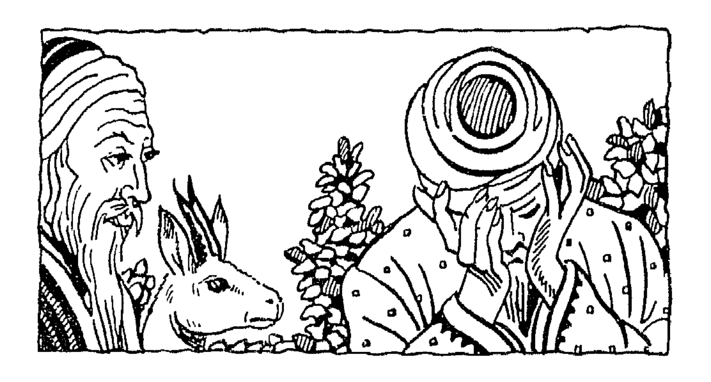
وبيْنما خليفة الصيادخارجٌ رآهُ المملوكُ صندل ، فسأله : مِنْ أين لكَ هذا الخيرُ الكثير ؟

فقال : من فضل الخليفة .

فقال : ألا تَهبُ لى شيئا منه ؟

فمدّ يدَه إليه بكيس فيه ألفُ دينار ، فقال العبدُ : شكْراً لك وقدْ ردَدْتهُ إليكَ تقديراً لمروءتك وكَرَمِك وكريم خُلُقك.

ولمّا دخل الصيّادُ سُوقَ المدينة راكباً بَغلتَه ، لابساً خلْعته الملوكية ، ومن حولِه العبيد والغلمان — تَعجَّبَ الناسُ من حاله ، وسألوه عن أمرِ الجديد ، فحكى لهم قصتَه ، ثم اشترى له داراً كانتْ لأحدِ الأغنياء المترفين ، وأنفَق فى تجميلها ما جعلها عَروساً بيْن الدور والقصور ؛ فأقام فيها وجَعل يزَورُ الخليفة من حينٍ إلى حين ، والخليفة يشملُه بفضْله ومحبته ، وما زَال يتقلبُ هو وزَوجُه فى نعمةٍ من العيشِ ورخائه ، حَتى جاءَهُم أمرُ الله المحتوم ، وسبحان الحىّ الدّائم القيوم .



التاجرُ والعِفريتُ

زعَموا أن تاجرًا مدَّ عليهِ السعْدُ ظِله الوارفَ ، فكثُرَ مالُه ، واتَّسقَ حالُه ، وكان كثيراً ما يضربُ في الأرضِ ، يبتغِي بتجارتِهِ فَضلَ اللهِ ورزقَهُ .

وذات يومٍ ركب دابَّتَه ، وغادَرَ بلدَتَه ، إلى بلدٍ آخرَ ، له فيه مَطلبٌ ، كابتياعٍ أو اعتياض أو غَيرهما ، ولما أجهدَهُ السيرُ ، ونالَ منه سُعارُ الهجيرِ ، رأى في سبيله شجرةً مُنعزلةً ، فأمَّها وحَطَّ الخرجَ عن ظَهرِ دابّته ، وجلس تحتَها ليأخذَ جِمامَه ، وينشِقَ نَسيمَ الراحةِ ، ثم يستأنفَ مسيرَه ، وكان قد أحسَّ جوعاً ، فأخرجَ تمْرةً من خرجه وأكلها ، وألقى على الأرضِ نواتها ، وإذا بعفريتٍ من الجنِّ قُدامَه ،

يرسلُ من عينيه شُواظاً من نار ، وبيدِه سيف تتقاطرُ سكِينةُ الموتِ من حَدّه ، وامْتدَّ العفريتُ فى نظر التاجرِ طولا وعرضا ، ثم انحنى عليه قائلا :

لقد حقّ عليكَ عاجلُ الفَناء ، بما قتلتَ ولَدى ظُلما وعُدوانا .

فانزوى التاجرُ فى نفسه خَوفاً ورُعباً وقال :

لم أقترفْ جَريمةَ قتلٍ فى حياتى ، وأبغضُ شىء إلىَّ القتلُ ظُلما ، وما فعلتُ الآنَ شيئاً ، ولـكنّى أكلتُ تَمرةً ، فكيفَ قتلتُ ابنَك ؟

فقال العفريت :

ألقيتَ نواةَ التمرة على الأرضِ بقُوةٍ ، فجاءتْ فى صدرِ ابنى فقُضِىَ عليه ، وقد كتبَ العدلُ بين الناسِ أنّ النفسَ بالنفسِ ، والعينَ بالعين ، والأذنَ بالأُذنِ ، والسنّ بالسّن ، والجروحَ قِصاصْ .

فقال التاجر : ولـكنى ما رأيتُه ، وما قصدتُ قتلَه .

فقال العفريتُ : ولـكنكَ تعلمُ أنّ مِن حوْلكَ خَلْقاً لا تراهم وهم يَروْنكَ ، وأنتَ قد ألقيتَ النواةَ بقوة ، وكنت قادراً على أن تضعها بجانبكَ أو أمامَكَ ، فسكنَ التاجر سكونَ الماء العميق ثم قال :

وما دُمتَ قد ذكرتَ العدلَ ووَددْتَ تنفيذَه ، فإنى أعتصم به أيضاً ، وأطلبُ إليكَ بحكمِ العدلِ حاجةً .

فقال العفريت : وما هى ؟

فقال : إنى تاجرٌ ذو مالٍ كثيرٍ لدَى حُرفائِى ومن يُعاملونِنى ،



والفقيرِ مِن المال عندى مثل مالى عند غيرهم ، وَلِى زوجةٌ وأولاد ، فدعْنى أرجعْ إلى بيتى ، لأكتبَ وصيتى بينَ أهلى ، وأرُدّ الحقّ إلى أهله ، وأعطىَ كل ذى حقٍ حقّه ، ولك علىّ عهد الصادقين أن أعودَ إليك فى هذا المكانِ ، فى مثلِ هذا اليوم من السنةِ المُقبِلَةِ ، لتفعلَ بى ما تُريد ، فأخذَ العفريتُ عليهِ ميثاقَه ، وخلّى سَبيلَه .

انقلبَ التاجرُ إلى أهْلِه ، والهمُّ يعتلجُ فى صدره ، وقصّ عليهم ما جرى له ، فانكفأ لونُ الحياةِ فيهم ، وحالفهمْ حزنٌ عميمٌ أبأسهم ، بما وَجدُوا من إصرارِ التاجرِ — وهو مشرقُ سعادتهم ، وأحبُّ الناسِ إلى نفوسهم — على الوفاء بما عاهدَ العِفريتَ عليه .

وفى اليوم الموْعودِ ، اجتمع به أهلُه وذَوُوه ، وودّعوهُ فى عاصفةٍ من نُواحٍ وبُكاء ، وحملَ كفنَه ، وركبَ سَمتَه ، إلى تلكَ الشجرةِ المعروفة ، وهناكَ جلسَ تحتها فى كآبةٍ وحَسرة ، مُسلماً إلى الله أمره ، راجياً أن يَرعاه ويحفظَه .

وما لبثَ قليلا حتى أقبل عليه شيخٌ كبير مُمسكٌ زِمامَ غزالةٍ يجُرها من خَلفِه ، فسلّم وجلس ، ثم قال :

لعلك أويْتَ إلى كنَفِ الشجرةِ للراحةِ ؟

فقال : ومَن فى الدنيا مُستريح ؟ ! ! لِكلُّ امرئٍ فيها شأنٌ يُغنيه ، ونسألُ اللهَ السلامةَ والعافية .

فقال الشيخ : وما شغلك الآن ؟

فقال : ما يشغلُ كلَّ حيٍّ في دنياه ، ويَبذلُ النفيس دونَه .

فقال الشيخ : لعلى واجدٌ عندكَ رغبةً في أن تطلعني عليه ، فعسى أن أن يكونَ لدىَّ من العونِ ما ينفّسُ عنك كُربتَه ؟

فقص التاجرُ عليه قصته فأكبرَ الشيخ دينَ التاجر ووفاءه وقال :

لا أبرحُ عنكَ حتى أرى حكمَ القدر فيك ، وأنتَ على ما أرى من الدينِ والتقوَى .

وبينما هما يَخوضانِ في مذاهبِ الحديثِ وفنونه ، إذ جاءهما شيخٌ ثان ، يقودُ كلبتين سَوداوينْ ، فحيَّا وانتظم في مجلسهما ، ثم قال :

لأمرٍ مَا جلستما في تلكَ البقعةِ ، وهي مأوى العفاريتِ والمردَة ؟ !

ولما أخبراه الأمرَ عجبَ وقال :

ولن أُزايلَ هذا المكانَ حتى أقف على مصير ذلك التاجرِ المسكين ، وأعرفَ آخرةَ صدقِه ووفائِه .

وبعد فترةٍ غير طويلة ، جاءهم شيخ ثالثٌ ، ومعه بغلةٌ في ربيع حياتْها، فانخرطَ معهم بعد أن حيّاهم ، وعرف قصةَ التاجر منهم ، وأصرَّ على أنْ يلبث فيهم حتى يرى ما سيكون .

وافَّ الأربعة سكونٌ عميقٌ ، بعثهم مِن مَرقدِه رؤيةُ غبرَةٍ كثيفةٍ ، تدنو منْهم سريعًا ، وانكشفَ حَلَكُها عن ذلكَ العفريت الذى جاءهم بسيفه ، ليقتصَّ من التاجرِ ويثأرَ لابنه ، وما أسرعَ أن جذبه بشماله ، من بين أصحابه ، وقال :

لقد كنتُ أرتقِبُ يومكَ هذ بِصَبرٍ ثقيل ، وهمٍّ عَظيم ، فقُمْ لأفصلَ بسيفِي هذا رأسك عن جِسمكَ جزاءً بما قَدَّمتْ يداكَ من قتل ابني ظلماً .

فَضجَّ الشيوخُ الثلاثة ، وتقدَّمَ إليه صاحبُ الغزالة ، وقبّلَ يدَه وقال :

أيها العفريتُ العظيم ، أتهبُ لى ثلث دم هذا التاجرِ إنْ أنا قصصتُ عليك قصة عجيبة ؟

وكان هذا العفريتُ مشغوفاً بالوقوفِ على عجائبِ الحياة وَغريبها — فألفَى هذا الرجاء هوًى عنده ، وجلس على رَغبةٍ يستمعُ لقصته ، واعداً إياه أن يجيب طلبتَه ، إن وقَعتْ موقع العجبِ من نفسه .

قال الشيخُ : هذه الغزالةُ التى تراها ابنةُ عَمى تزوجتها عنْ محبةٍ صادقة ، ازدهرتْ بها حياتنا الزوجية ، ولبثتُ معها ثلاثين سنة ، لم نُرْزقْ فيها ببنتٍ أوْ ولد ، ثم وقَعتْ لى فى بعضِ البلاد التى أغتمرها ، جاريةٌ مُشرقةُ الوجه ، وضاءةُ الجبين ، يَنمّ دَلُّها عنْ دِينٍ طاهرٍ يجرى فى قلبها ، ويَشعُّ من مسامّ جِسمها ، فاشتريتها وجئتُ إلى بيتى بها ، وبَعد سنةٍ من مقامها رزقتُ منها بولدٍ ، كان قُرةَ العينِ ، وثمرةَ الحياة ، فجعل يتقلبُ على مهادِ النعمة ، بينَ يدىْ أبيه وأمّه ، حتى زكا عودُه ، واستوى جماله ، وبلغَ من العمر خمسَ عشرةَ سنة .

ثم سافرتُ إلى إحدى المدنِ ، ومعى بضاعتى التى أتجرُ فيها ، تاركا بيتى وفيه ابنى رجاء المستقبل ، وعمرى المحدود ، ومنْ أُحب من أجلهِ

السعىَ والحياة ، وكانت ابنة عمى هذه على معرفةٍ واسعةٍ بالسحر والكهانة ، فانتهزت غيبتى ، و بدلتْ ابنى بسحرها عجلا ، كما بدلتْ أمّه بقرة ، وأسلمتهما إلى الراعى ، وهو لا يعلمُ من أمرهما شيئًا ، ولما حضرتُ بعد غيبتى الطويلة ، لم أجدهما قد حضرا لاستقبالى وتهنئتى بسلامة عودتى ، فسألتُ عنهما ابنةَ عمى ، فقالت : أمّا جاريتُك فقد ماتتْ ، وأما ابنكَ فلم يُطقْ صبرًا على فراقِ أمـــه ، فخرج ولمْ يَعُدْ ، ولا ندرى له مذهبًا ولا مكانًا ، ولما كنتُ لا أستريبُ فى خبرها انقلب البيت فى نفسى وحشة ، وفى عينى ظُلمة ، وخَفقَ قلبى ألمًا وحسرة ، وضرعتُ إلى اللهِ أن يُلهمنى الصبرَ ، ويدفعَ عنى كل بلاءٍ وضُر .

ولما جاء عيدُ الضحايا أمرتُ الراعى أن يُحضرَ بقرةً ، لأذبحها ضحية ، أتقربُ بها إلى الله ، وأنفّسُ بلحمها عن الفقراء ضَنْكَ الفقرِ وكربتَه ، فجاءنى ببقرةٍ سمينة ، وكانت البقرةُ جاريتى التى بدلتْ خَلقَها بالسحر ابنةُ عمى ، ولما هممتُ بها أن أذبحها ، خارتْ خُوارًا غريبًا ، لم أَعهده من قبلُ فى بقرة ، وأحْسَسْتُ من نفسى صدًّا عنْ مباشرةِ ذبحها ، فوكلتُ أمرها إلى الراعى ، ولما ذبحها لم يجدْ فيها إلا عظمًا وجلدا ، فأصابنى من الأَلم لذبحها ما أصابنى ، وأمرته أن يأتى بعجل سَمِين ، فجاء بولدى المسحور ، فما رآنى حتى فاضتْ عيناهُ دموعا ، وألقى بجسمه أمامى ، فى ضراعةِ المستغيث ، ومذلة الراجى ، فأخذتنى الشفقةُ به ، وأمرتُ الراعى أن يبقيه ، ويعرضَ عن ذبحه ، وألحت ابنةُ عمى علىَّ أنْ أذبحه ، فلم يُجْدِ

إلحاحُها فى نفسى شيئاً ، وعكفتُ فى بيتى ، أتقلبُ على فراشٍ من الحَيْرَةِ والدهشة ، حتى صباح اليوم التالى .

وبينما أنا جالس فى بيتى ، متلفعٌ بفضل دهشتى ، إذ أقبل الراعى محيّيا وقال : جئتُك بنبأٍ يسرُكَ ، ولىَ البُشرى عندك ، فقلت : لك ما تَشاء ، إن صرف عنى نبؤك ما أقاسيه من بلاء ؛ فقال : لى بنتٌ تعلمت السحرَ فى صِغرها من جدتها لأمها ، ولما دخلتُ أمس بالعجل عليها غطت وجهها ، وبكتْ ثم ضحكتْ وقالت : أَهُنَ قَدرى عندكَ يا أَبى ، فتُدخِلَ علىّ الأجانبَ من الرجال، يَظهرونَ على عوارتنا ؟ ! فقلت لها : وأين الرجالُ يا بنيّتى ؟ ! فقالت : ذلك الذى تمسكُ زمامه بيدكَ ، وتجرهُ من خلفِكَ ، فقلتُ : وكيف كان ذلك ؟ ! فقالت إن العجل الذى معكَ ، ابنُ التاجرِ سيدِكَ ، مسختْهُ زوج أبيهِ بسحرها عِجْلاً ، كما مسختْ أُمه بقرة ، وذلك ما أَضحكنى ، أما الذى أبكانى فذبحكم أُمَّه يومَ العيد ؛ وقد عجلتُ إليكَ بهذه البشرى .

لم أُطِقْ صبرًا ونهضتُ فرِحًا إلى دارِ الراعى ، لأستوثق من ابنتِه ، وهناكَ أكدتْ أنّ هذا العجلَ ابنى ، وأنها تستطيعُ إرجاعه بشرًا سويا ، فقلت : ولكِ إنْ فعلتِ هذا ما تحت يد أبيكِ لِى من مالٍ ، فقالت : وعلى أنْ تزوجَنى به ، وأن أسحرَ ابنةَ عمك فأمسخَها غزالة ، حتى آمنَ منْ شرها وكيدها ، فقلت : وَلكَ ذلك ومعه عظيم شكرى .

قامت ابنةُ الراعى وأحضرتْ وعاءً به قليلٌ من الماء ، وقرأتْ عليه



ما شاءتْ ، ثم رشت العجلَ به قائلة : إن كنتَ خُلقتَ عجلا فدُمْ على حالك ، وإنْ كنتَ مسحورًا فعُد كما كنتَ بشراً سويّا ، بإذن الله تعالى ؛ فانتفض العجلُ إنسانًا فى خَلقِه القويم، وصورته الأولى ، فضممتُه إلى صدرى ، وأجلستُه بجانبى ، وطلبتُ إليه أن يحكىَ لى ما جرى له ولأمه فى غيْبتى فقص علىّ ما سمعتَهُ منى ، وقد زوجتُه ابنةَ الراعى ، ومسختْ هى ابنة عمى غزالة، وهى التى تراها الآن.وقد وُقينا كيدها وشرها بمسخها ، ولأنها ابنةُ عمى ، وكانت زوجى ، فما زلتُ بها رءوفاً ، ولها وفياً كريماً ، فلا أفارقُها فى مغداىَ ومَراحى ، حتى يوافيَها أجلُها ، وهذه قصةُ الغزالةِ ، ولعلها وقعتْ موقع العجبِ من نفسكَ ؛ فقال العفريت : وقد وهبتُ لك ثُلث دم التاجر .

وتقدم الشيخُ الثانى ، فقبَّلَ يد العفريت ، ورجا منهُ أن يمُنّ عليه كما منّ على صاحبِ الغزالة من قَبل ، فيمنَحه ثلثَ دم التاجرِ إنْ سردَ قصةً لا تقلُّ فى غرابتها عنْ قصةِ الغزالةِ، فقال العفريت : لا مانعَ لدىّ من أن أمنحكَ ما طلبتَ ، إن وجدتُ فى قصتك غرابةً ومُتعة ، فقال الشيخ :

تُوفىَ أبى عنى وعن أخوَين شقيقين ، وورّثنا ثلاثة آلاف دينار ، تخذناها منبَع كسبٍ وربح ، بالعمل بها فى التجارة ، وكان لكلٍّ منّا دكانٌ فى المدينة ، يبيع فيه بضائعه ، فيدرُّ عليه ربحًا وفيراً يغنمه ، ويزيد رأسَ مالِهِ .

ولكنّ أخوَىّ لم يقنَعا بذلك ، فقادهم الطمع فى ربحٍ أكثر ، إلى

أن يذهبوا ببضائعهم إلى أسواق البلاد والمُدُن القريبة والبعيدة ، وكثيرًا ما كانا يرجعان منها بخُفَّيْ حُنَيْن ، فيجدان من عطفي عليهما وإمدادهما بمالي ، ما يكفلُ لهما الاستمرار في تجارتهما ، وصلاح حالهما ، ما داما مقيمَيْنِ في المدينة .

وذات مرةٍ أغرَياني بالسفر معهما ، حتى نزلتُ على رأيهما إشفاقًا ورحمة ، ولكنى أشرْتُ عليهما أن نقسِمَ أموالنا قسمين متساوِيَيْنِ ، قِسمٌ نأخذه معنا وقسمٌ ندفنه في بيت من بيوتنا ، ليكون مَددًا لنا وعَوْنًا ، إذا أخفق مسعانا ، وكُتبَ الضياعُ على ما في أيدينا من الأموال ؛ فرَضِيا بذلك ونفذناه .

رَزَمْنا بضائع بثلاثة آلاف دينار ، وأَوْدعناها مركبًا ، أَقلَّنا إلى مدينة عامرة ، نفقت فيها سوقُ بضاعتِنا ، فبعناها وربحنا ربحًا وفيرًا ، وأخذْنا في العودة إلى مدينتنا .

وبينما نحنُ على شاطئ البحر في انتظار المركب ، إذ أقبلتْ عليَّ جاريةٌ تلبسُ خُلقانًا بالية ويدلُّ شكلها على بُؤْسها ، وحاجتها إلى الرفق والمعونة ، فقالت :

يا سيدى ، ألا أجدُ عندك من الإحسان ما أجْزِيك به ؟!

فقلت : لدَيّ من الإحسان ما تشائين ، ولا أُريدُ منكِ جزاءً ولا شُكورا .

فقالت : لا يزهدنكَ فيَّ ما تراني عليه من بؤس وفاقة ، فإني أحفظ

الجميل وأردّه إلى صاحبه أضعافاً مضاعفة ، نخفق قلبي من أجلها ، خفقان محبةٍ لها ، وعطفٍ عليها ، وقلت :

أبيني عن مقصدِك ، فلكِ عندى ما تطلبين .

فقالت . أن تتزوّجني وأصحبك إلى بلدك ، وقد وهبْتُ لك نفسى عَلَى مشهدٍ من هذين الرجلين — وأشارت إلى أخوَىّ — فقبلتُ منها قولها، ولبيتُ رغبتها ، وبدلتُ حالها من بؤسٍ إلى نعيم ، ومن ذِلةٍ إلى عزةٍ ، وعنيتُ بها ونحن فى المركب عناية عظيمة .

فدبّ دبيبُ الحسدِ فى قلبِ أخوَىّ ، وطمِعاً فى مالى وزوجتى ، وزيّنَ لهما الشيطان قتلى .

وبينما أنا نائم فى المركب بجوار زوجى ، أقبلا علىّ ، وحملانى فى رفق ، ورميانى فى البحرِ ، فأحَسَّت ذلك زَوجى ، فهبّت من نومها منزعجة ، وانقلبَتْ فى الحال جنّية ، وحملتنى فى الحال إلى جزيرة ، وألْبسَتنى ملابس أُخرى جافة نظيفة ، وقالت :

أنا زوجُك التى أحسنتَ إلىّ وتزوّجْتني ، رماكَ أخواكَ فى البحر وأنتَ نائِم ، ليقتُلاك طَمعاً فى مالك ، وقد نجّيْتُكَ من الغرق جزاءً بما قدَّمَتْ يداك من إحْسان ، وأنا جنيّةٌ مؤمنة بالله ورسوله ، وقد عزمتُ على قتلِهما ، بما اجْترحا من سيئة القتل المنكرة .

فقلت : ولكنهما أخوَاى ، ويَحزُنُنى أن أراهما فى مكروه ، مهما



يكُن منهما لى من إساءة ، والمؤمن من جَزَى المحسِن بإحسانه ، وَوَكل المُسىءَ إلى ربّه .

فقالت : ما دمت كارهاً قتلهما فسأتركُهُ من أجْلِك ، ثم حملتنى إلى دارى ، فأخرجتُ ما كنتُ قد دفنتُه فيها من المال ، وابتعتُ به بضائع وضعتها فى دكانى ، لأتجِرَ فيها كما كنتُ من قبل .

ولما أدبَر النهار وعُدت إلى دارى ، وجدت هذين الكلبين مربوطين فى ناحية منها ، فلما رأيانى تلهَّفا عَلَىّ وبكَيا بكاءً يشُق المرائر ، فأسرَعَت إلىّ زوجى وقالت :

هذان الكلبان أخواكَ ، اللذان خاناكَ ، وألقياكَ فى البحر لتغرَق وتهلك ، ذهبتُ إلى أختى ، وقصصتُ عليها خيانتهما وسوءَ فعلتهما ، فسخَتْهما بالسحر كلبيْن ، على ألاَّ يعودا إلى صورتِهما الأولى إلا بَعدَ عشرِ سنين ، ولما انتهت المدَّة — يا سيدى العفريت — أخذتهما إلى أختِ زوجَتى ، لتُعيدَهما سيرتَهما الأولى، فوجدت وأنا سائرٌ ذلك التاجرَ وهذا الشيخَ تحت هذه الشجرة ، فسلَّمتُ عليهما وجلستُ قليلا ، ولما عرفتُ منهما أمرَ التاجرِ عزمت على أن أمكُثَ معَهما حتى أقِفَ على مصيرِه ؛ فقال العفريت : وأرى أيضاً فى قصتِك غرابة ، ولهذا وهبتُ لكَ ثلثَ دَمِه .

وأقبل الشيخ الثالثُ على العفريتِ وقبَّلَ يدَه ، وقال : أرجو إن قصصْتُ عليكَ ما هو أعجبُ وأغرب ، أن تهبَ لى البقيةَ الباقية من دمه ،

فقال : هاتِ ماعندكَ والحكمُ بعد أن نَسْمَع . فقال الشيخ : تزوّجتُ من فتاة ساحرة القوام ، فاتنة الجمال ، وعاشرتها بالمعروفِ والحسنى ، فلم تجد مِنّى إلا حبًّا وإخلاصًا ، وبِرًّا ووفاء ، وقد اطمأننتُ إليها ، فلمْ أسترب فى سلوكها

وفى يوم دخلتُ عليها الدّارَ فى وقتٍ لمْ تكنْ تتوقّعُ مجيئى فيه ، فألفيتُ معها فى الدار عبدًا أسود ، وتلك حالٌ تبعث فى النفس الشبهةَ والظنّة ، فلمحتْ فى عيْنى سوء ظن بها ، وأنى محاسِبها على فَعلَتِها ، التى أثارت فى جوانب نفسى الظنونَ بها ، وكانت فى السحر ماهرة ، فأحَبَّتْ أن تخلص من هذه الورطة ، وتُقبرَ فى مهدِها تلك الفعلة ، فرشّتْنِى بماء كانتْ قد أعدّته ، وقالت : تبدّلْ أيها الزوجُ الماكرُ من إنسانٍ إلى كلب مَهين ، ثم أوجعتنى ضربًا بالعصا ، وطردتنى من بيتى على أسْوأ حال .

خرجتُ من بيتى كلبًا أقتاتُ من الجيف والقمامات ، حتى وقفتُ أمام جَزار ، وجعلتُ أرتقبُ ما يُلقيه من عظمٍ ونحوه فألتقمه ، فى مسكنةٍ ومَذلة ، ولمحتُ من الجزارِ إشفاقًا بِى وعَطفًا علىّ ، فعكفت يومى رابضًا أمامه ، ولما انتهى من عمله ، أخذنى معه إلى بيته ، وما كادتْ ترانى بنتُه ، حتى عرفتْ أمرى على حقيقته ، إذ كانت فى السحر بارعة فقالت لأبيها : لقد أحسنتَ حيثُ لا تقصدُ الإحسانَ ولا تدريه ، وجَرى الخير على يدَيكَ ولم تكُنْ تبتغيه .

فقال : وكيفَ كان ذلك يا بنيّتى ؟ !

فقالت : ذلك الكلبُ الذى جئت به رجلٌ مَسحور ، ويغلبُ على ظنى أن زوجته هى التى سحرته لأمر فى نفسها ، وإنى لقادرةٌ على أن أعيده إنسانًا ، لتعرفَ منه صدق ما أقول ، فقال : ولكِ المثوبةُ العظمى ، والجزاء الأوفى : فأحضرتْ قليلا من الماء ، وجعلتْ تمرُّ بإصبعِها فى نواحيه وتقرأُ ما تقرأ ، ثم رشتْنى به ، فانقلبت إنسانًا بقدرة اللهِ تعالى ، وأقبلت عليهما حامداً شاكرا ، وقصصتُ عليهما قصتِى ، ثم رَجَوت ابنةَ الجزار أن تساعدنى على مسخ زوجتى بغلة . فأعطتنى وعاء به قليل من الماء وقالت انْضَحْ جسمَها بهذا الماء وهى نائمة ، وأنتَ تقول : كونى بغلة بإذن الله تعالى .

خرجتُ من بيتِ الجزار فرحًا ، وانتهزت فرصةً تكون فيها زوجتى نائمة ، ونفذت ما أشارت به علىّ ابنة الجزار ، فصارت بغلةً بقدرةِ الله تعالى وهى البغلةُ التى معى الآن : فالتفت العفريتُ إليها قائلا : أصحيحٌ ما قالَ ذلكَ الشيخُ ؟ فطامنَت برأسها إشارةً إلى أنه حقٌ ما قال ؛ فعجِبَ العفريت ووهب له البقيةَ الباقيةَ من دمِه ، وخلَّى سبيلَهم ، وذهب كلٌ إلى شأنِه .

ورجَع التاجرُ إلى أهله مسرورا ، فاستقبلوه فرحين ، وقصّ عليهم ما جرى له ، فعلموا أن الله يدافعُ عن المؤمنين ، والصالحين من عِباده .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٣٤٤٧
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 3239 – 4

١ / ٩٠ / ١٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبو الحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف

١٠/٠١١٤١١

C
2

قرش جنيه
٢,٥٠